١٢٧

روايات احلام

الدموع البيضاء

www.etromancia.com
مرمورية

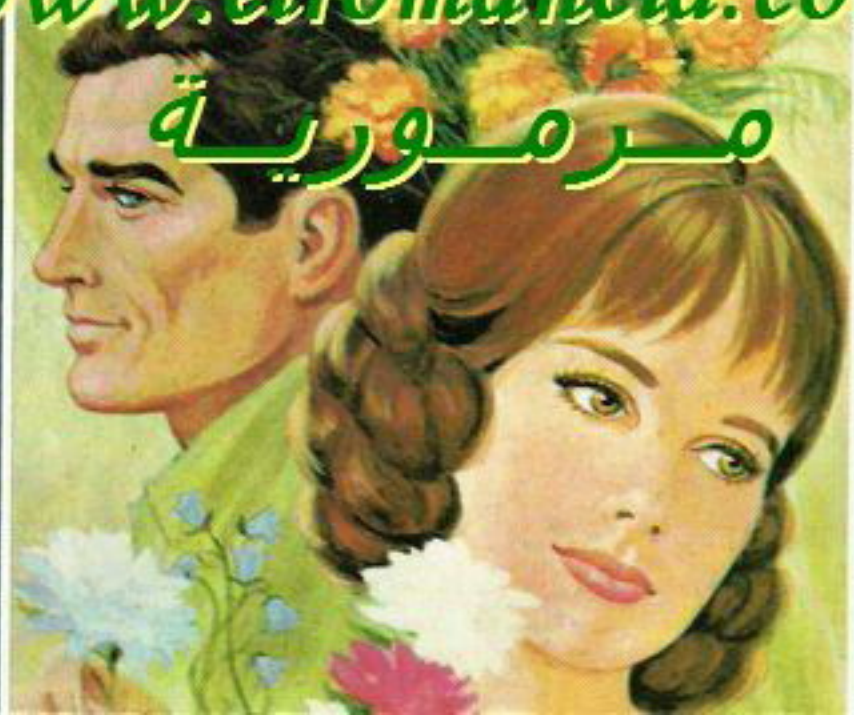

روايات احلام

الدموع البيضاء

لمن يدين قلب صابرينا بولائه؟ لماريو فورتسكيو فاتن النساء الذي دخل قلبها منذ النظرة الأولى؟ أم لريكاردو غانتيوني القاسي المتعجرف الذي يثير فيها أقوى مشاعر الخوف والغضب في الوقت نفسه؟

إذا كان ماريو من تحب رفقته فلماذا تفقد السيطرة على أعصابها وقلبها في حضور ريكاردو رغم إتهاماته الظالمة ومعاملته القاسية لها؟ أليس خطأً فادحاً أن تقبل بالعمل عند رجل له هذا التأثير المدمر على عواطفها؟

www.elomlaa.com

١ ـ ثرثرة على الشاطىء

«على الرجال السمر أن يرتدوا دائماً قمصاناً بيضاً تبهر الأبصار، وتحديداً حين يكونون طوال القامة نحيلين وجذابين مثل هذا الرجل الواقف على رصيف الميناء».. هذا ما قررته «صابرينا» دون أدنى تردد وهي التي كانت تراقبه لعدة دقائق انقضت، منذ أن وقعت عيناها عليه. ليس بشكل ظاهر طبعاً بل من خلف نظارة سوداء تحفظ ماء الوجه.

لقد كان بالضبط ما يعتبره معظم الإنكليز الإيطالي المثالي. زيتوني البشرة، أسود الشعر، تحيط به هالة من الثقة الزائدة بالنفس تصل تقريباً إلى حد التعجرف مع شيء من التكاسل الظاهر.

خلال الأيام الثلاثة التي مضت عليها وهي في «بيلابايا» شاهدت صابرينا مئات الأشخاص رجالاً ونساء وأطفالاً، وكلهم باللون نفسه مع الابتسامة عينها، وبالطيبة ذاتها، لكن ما كان منهم من أحد يأسر العين كهذا الرجل. لقد كان جميل الطلعة، هذا على الأقل ما كانت تراه هي من مكانها على مقعد حجري، على مسافة أبعد بقليل من رصيف الميناء. طويل، نحيل الخصر، يرتدي ذلك القميص البهي المفتوح الياقة بما يكفي للكشف عن بشرته الذهبية القاتمة.

كان معه صبي صغير، وجهه إلى حد ما حزين، وبدا لـ صابرينا يشبه الرجل تماماً. وقد يكون في الخامسة من عمره نحيل إلى حد مؤلم، على الرغم من وجهه الأسمر المملوء عافية.

في تلك اللحظة كان الصبي منهمكاً في مراقبة الصيادين المحليين، الذين كانوا يصلحون شباكهم استعداداً لرحلة المساء المخصصة لصيد سمك الرنكة الصغير. بدا الطفل وكأنه على استعداد للبقاء فترة طويلة، لكن الرجل أحنى رأسه وقال شيئاً للصغير ربما ليحثه على الذهاب، هذا إذا كانت إشارة الرأس من الطفل تدل على أي شيء من هذا. ومرة أخرى كلّمه الرجل، وابتسمت صابرينا الخبيرة بتصرفات الأولاد مهما تكن جنسياتهم، وهي تتخيل صراع الإرادة الدائر بين الاثنين.

انحلت المشكلة بعد لحظات حين رفع الرجل الصبي على كتفه ممسكاً بذراعيه النحيلتين، في حين تدلت ساقاه على صدر الرجل، ولم يبك الصبي بل أن صابرينا سمعت ضحكاً صادراً منهما وهما يسيران على الرصيف.. باتجاهها! ولاحظت كم أنهما جذابان، الرجل الطويل الجميل والطفل النحيل الضاحك، الراكب على كتفي الرجل. مع أن الصبي لم يكن جميلاً إلا أن هناك سحراً أكيداً في هيئته، حتى أنه كان يروق للنظر والتأمل. وراقبت صابرينا بابتسامة خفيفة الاثنين يقتربان منها، فيما مراكب الصيادين خلفهما تصعد وتهبط بلطف وأمان، فوق الماء الأزرق اللامع كالذهب تحت أشعة الشمس. لقد بدوا لها لائقين تماماً، ومتشابهين مع الناس ذوي الوجوه السمراء البراقة، وكأن الاثنين جزء من مشهد عام، أحست صابرينا لأجله بابتهاج غير متوقع.

كانت «بيلابايا» مكاناً صغيراً جميلاً، ومما زاد في حسنه تلك الصخور المرتفعة في الميناء والرمال البركانية القاتمة. الصخور

المرتفعة بشكل حاد كانت مقسّمة إلى مدرجات استحدثها السكان المرحون النشطون، وكأنها رفوف مليئة بالخضر ينمو فوقها العنب والبرتقال، اللوز والتفاح والخوخ. رائحة زهر الليمون كانت تنتشر في كل مكان، حتى أنها غزت غرفة نومها في تلك الفيلا القابعة على مكان مرتفع من السطح المنحدر، حيث يحمل الريح الناعم معه كل أنواع العطور والرياحين.

كانت جنة لم تكن لتكتشف مثلها إطلاقاً لولا أن صديقة نصحتها بزيارتها. وكانت صابرينا قد قررت أخذ إجازة وقضاءها خارج البلاد قبل القبول بوظيفة أخرى، ولطالما أحبت فكرة الذهاب برحلة إلى إيطاليا. وكانت النصيحة بـ«بيلابايا» مفيدة جداً، وهي تقيم الآن في الفيلا ذاتها مع الأشخاص ذاتهم الذين عرفتهم صديقتها، ولقد تمتعت حتى الآن بكل لحظة من أوقاتها.

بما أن صابرينا عملت كمربية أطفال فإن لها صلة وئام مع معظم الأولاد. منظر الصبي الصغير يركب على كتفي الرجل دفعها إلى الابتسام فيما كانا يقتربان منها. ضحكهما كان معدياً. ولما صارا أمامها تماماً نظرا إليها نظرة وداد وكأنهما يدعوانها لمشاركتهما المرح. عينا الطفل تكشفان الفضول غير المكبوح فيما نظرة الرجل تُظهر تقديراً صريحاً لها كامرأة.

كان شعرها الذهبي القاتم يجعلها مميزة جداً، في مكان كل النساء فيه سوداوات الشعر والعينين، فالسواح قلائل في «بيلابايا» ووجهها البيضاوي كان جميلاً فوق العادة، حتى مع اختفاء عيني صابرينا الخضراوين وراء نظارة سوداء فقد كانت تبدو فتاة جذابة بلا ريب، والحساسية اللاتينية المرهفة لم تكن لتبطىء في تقدير هذا الواقع.

على أي حال ومع اعتيادها على نظرات الإعجاب، كان هناك

شيء ما في تطلعات العينين السوداوين لهذا الرجل، وهو ما تسبب لها بارتعاشة سريعة وغير متوقعة، وفي منطقة القلب تحديداً.

جسمها الصغير المحكم التفاصيل كان يبدو في أقصى درجات الفتنة داخل فستان أصفر برّاق دون أكمام منخفض الياقة. ولا شك أن الرجل لحظ كل شيء فيها، بالنظر إلى طول وحدة نظراته التي قيَّمت كل شيء، من قمة رأسها الأحمر الشعر إلى ساقيها النحيلتين، المتقاطعتين الواحدة فوق الأخرى.

وجدت نفسها مجبرة تقريباً على نوع من التحية في تلك اللحظة ونظرت مجدداً إلى الطفل وهي تبتسم:

ـ مساء الخير.

كان الرجل هو الذي رد عليها وبإنكليزية مكتملة. رأسه الأسود الشعر كان سينحني لولا وجود الولد بين كتفيه ولمعت نظرة تقدير صريحة في عينيه.

ـ مساء الخير، سنيوريتا.

كان له صوت لطيف وعميق من النوع ذاته الذي تخيلته، وأكمل قائلاً:

ـ هل تتمتعين بأشعة الشمس؟

هزت صابرينا رأسها بالإيجاب:

ـ كثيراً.. شكراً لك.

شعرت بإثارة لا تفسير لها وهي تلتقي الجرأة في عينيه السوداوين على الرغم من ارتدائها نظارة سوداء، إحساس غريب شعرت به وهي تنظر إليه بتفحص عن قرب.

ـ أتقيمين في «بيلابايا» في عطلة؟

بدا أنه مصمم على المضي في التعارف، عقلها السليم كان يحذرها ويذكرها بكل الأمور التي سمعتها عن الرجل اللاتيني،

حتى الولد كان ينظر إليها بعينين فضوليتين جريئتين.

ربما تسرَّعت في الحديث هكذا لكنها لا تستطيع التفكير بسبب يدعوها إلى التراجع الآن.

ردت:

ـ لفترة قصيرة، أنا في مرحلة انتقالية من عمل إلى آخر فانتهزت الفرصة لأرى شيئاً من إيطاليا، وهذه بلاد جميلة جداً.

ـ جميلة جداً!

من نظرات عينيه يبدو بوضوح بأنه يصفها هي وليس إيطاليا، ثم أكمل قائلاً:

ـ يجب أن تسمحي لي بأن أريك شيئاً من الريف.. أنت هنا وحدك؟

هزت صابرينا رأسها:

ـ أجل، أنا أقيم هناك في «ڤيلا بيلا».

ـ آه يا لحسن الحظ، نحن نسكن «ڤيلا غانتيوني» أتعرفين هذا؟ تستطيعين القول إننا تقريباً.. كيف تقولين هذا؟ جيران، أجل جيران. اسمحي لي بتقديم نفسي سنيوريتا، أنا «ماريو دبليغاني فورتسكيو»، وهذا «طونيو ريڤيلو».

أعلن الاسم متباهياً حتى كادت تضحك. كانت تظن الولد ابنه لكنها كانت مخطئة. أمسك بيدها مصافحاً للحظات كافية لإظهار لباقته واحترامه. مع ذلك تمكن من الضغط على أصابعها وهو يحني رأسه قليلاً.

ـ أنا أُدعى «صابرينا رويس».

ـ صابرينا؟ إنه اسم غير عادي، أليس كذلك؟

ـ أجل، إنه اسم غريب، ربما كان أصله لاتينياً.

ـ آه.. أجل، إنه جميل جداً ويستحق جمالك سيدتي.

www.elromancia.com

لم تكن صابرينا واثقة مما إذا كان من الحكمة أن تستجيب للبريق الجريء في عينيه أم لا.. لكنها ابتسمت. «ماريو فورتسكيو» وبالسرعة التي أصبح فيها مألوفاً لها لا يحتاج إلى كثير من التشجيع. مع ذلك فهو أكثر الرجال خطورة ممن التقتهم يوماً، وبإمكانها بسهولة أن تجعل من نفسها حمقاء تماماً إذا لم تكن حذرة جداً.

قال الصبي طونيو شيئاً بالإيطالية وهز ماريو رأسه وهو يبتسم معتذراً.

ـ أنا آسف سيدتي، يجب أن نتكلم الإنكليزية.

سألته مبتسمة:

ـ ولماذا؟ أنا لا أمانع أبداً.

رفع حاجبيه:

ـ آه، لكن ريكو يمانع، حين نكون في صحبة أشخاص إنكليز يفضّل أن نتكلم الإنكليزية، لا سيما طونيو. وهذا في مصلحته عندما يكبر. ريكو نفسه يتكلم الإنكليزية بطلاقة ويرغب في أن يكون طونيو مثله.

هزت صابرينا رأسها حتى بدت أكثر حكمة مما هي حقاً، كائناً من يكون «ريكو» من الواضح أن كلامه مهم جداً، وقالت:

ـ أوه.. فهمت.

ـ سيد «ريكاردو غانتيوني» هو الوصي على طونيو.

بدا لها الاسم مألوفاً، ثم تذكرت أنها سمعت مضيفها في «ڤيلا بيلا» يذكر اسمه على أن له علاقة بشركة الكترونيات في مدينة «نابولي» القريبة، وتذكرت أيضاً، تعليقاً حول الشخص عينه، باعتباره أحد أثرى الرجال في إيطاليا. وعلى الأرجح ماريو موظف لديه، ومحظوظ جداً لأنه مكلف بالاهتمام بالطفل.

قالت مبتسمة:

ـ أهتم للفكرة طبعاً.. اللغة الثانية مفيدة جداً، لكن هذا الشاب الصغير أصغر من أن يفهم لغتين بعد.

ـ للأسف «ريكو» لا يفهم هذا دائماً، وطونيو يستخدم كلمات إيطالية حين لا يستطيع التفكير بكلمات إنكليزية.

قالت متعاطفة:

ـ لكن هذا أمر طبيعي.

ـ أنت متعاطفة كثيراً سيدتي، لكن لسوء الحظ ريكو يفقد صبره أحياناً.

احتجت دون تردد: أوه هذا غير عادل! لا شك أنه ظالم فظيع!

لم تفكر قبل أن تتكلم وأدركت فجأة أنها تتحدث إلى شخص غريب، موظف عند رب عمل. لكن ماريو لم يُبْدِ إلا قلقاً غامضاً وهو يقول:

ـ أرجوك.. لا تجعليني أضلّلك سيدتي! إنهما يحبان بعضهما كثيراً، لكن ريكو.. صارم، أتفهمين هذا؟

ـ أظن ذلك.

لكنها لا زالت تعتقد أن أي إنسان يمكن أن يفقد الصبر مع طفل صغير حزين مثل طونيو، لمجرد أنه يلجأ أحياناً إلى لغته ليعبّر عما في نفسه، لا شك أنه مستبد. وتمنت لو أنها تختلي بهذا الرجل لخمس دقائق فقط.. لكانت قالت له رأيها فيه بالضبط.

كانت عينا ماريو فورتسكيو تنفرسان فيها بإعجاب جريء، ثم ابتسم لها بدفء وبصوت منخفض قال لها:

ـ كم ستقيمين في «بيلابايا» سنيوريتا؟

أحست صابرينا بقلبها يخفق مرة أخرى بتأثير صوته فيها. في

الواقع كان الأمر سخيفاً بالنسبة لها أن تضطرب وكأنها فتاة مدرسة، لمجرد أن نظر إليها غريب بعينين تجعلانها تفكر بكل أنواع الأشياء غير المعقولة.

قالت بتجهم:

ـ أوه.. لأسبوعين فقط.. ثم سأضطر إلى العودة بحثاً عن عمل، فأنا مربية أطفال.

بدا مسروراً بشكل غير عادي بهذا الجواب لسبب ما، وأشرقت عيناه السوداوان:

ـ حقاً؟ هذا «مولتو بيني» سنيوريتا، رائع جداً!

تلك الحماسة حيرتها لكنها ابتسمت وهزت رأسها.

ـ هذا ما أظنه أيضاً وأنا أتمتع بعملي.

ـ رائع، عظيم.

نظر إلى ساعته وكشَّر:

ـ أظن أنه علينا الذهاب الآن سنيوريتا، لكن لو كان لي أن أطلب شيئاً أرجو رؤيتك ثانية، نعم؟

ابتسمت لهما:

ـ سيكون ذلك لطيفاً جداً. وداعاً سنيور «فورتسكيو».

شهقت دون إرادة منها حين أمسك يدها ورفعها ليطبع قبلة حارة على أصابعها:

ـ وداعاً سيدتي.. سنلتقي ثانية!

جلست صابرينا حيث هي لوقت طويل بعد ذهابهما، تراقب الحركة على الرصيف حيث كان الصيادون يعملون ويتبادلون الأحاديث فيما بينهم. ضحكاتهم وأصواتهم الإيطالية المتحمسة تتعالى في الجو الدافىء المشمس الذي يتلطف بنسيم عليل يأتي من البحر.

معظم البيوت كانت أكواخاً صغيرة للصيادين وعائلاتهم أو لعمال الحقول المتدرجة فوق الصخور المرتفعة. لكن كان بينها بضع ڤيلات أكبر حجماً مثل التي تقيم فيها صابرينا، منفردة بين المدرجات المخضوضرة المثمرة. لم يكن بالإمكان الوصول إلى هذه الڤيلات سوى عبر طرقات ضيقة شديدة الانحدار، تتصاعد وكأنها أفاع مغبَّرة بين الأشجار والشجيرات الشائكة لتنضم في النهاية إلى الطريق الرئيسية المتجهة إلى «نابولي» نفسها.. الصعود من الميناء والنزول إليه لا يمكن أن يحدث إلا سيراً على الأقدام وهناك سلالم محفورة في الصخور تحميها جدران منخفضة.

راقبت صابرينا الرجل والطفل وقد بدآ يتسلقان أحد هذه الممرات. الصبي يمسك بيد الرجل وهما يصعدان ببطء. كان هناك ڤيلا مرتفعة شديدة البياض إزاء السفح الصخري المليء بالأشجار، وكأنها لعبة لطفل، ولفت نظرها تعريشات السنط الصفراء «والجيرانيوم» القرمزي مما يضفي ألواناً حية حيث تطبق الحدائق حول الڤيلا وكأنما هي لاستبعاد النباتات الأقل شأناً.

نظرة واحدة إلى ساعتها جعلتها تقف بتكاسل.. الهواء الدافىء الذي يرطِّبه البحر جعلها تشعر بتكاسل شديد، وتعجبت للطاقة السكان المحليين والتي تبدو كأن لا حدود لها. ولا يتدفق نشاطهم المحموم سوى وقت القيلولة التي يأخذونها في منتصف النهار. وكانوا دائماً يحفظون لها كلمات جميلة وصيحات «بون جور سنيوريتا» تلاحقها عبر الرصيف.

كانت عيون ودودة برَّاقة تراقب مرورها، وبسمات الإعجاب بها تلاحقها. لكن صدمها اليوم أن تعي ربما وجود أكثر من الفضول اللطيف العادي في النظرات التي تتلقاها.. ومع أنها حاولت صرف النظر عنها إلا أنها لم تستطع إلا أن تتساءل عما إذا

كان حديثها القصير مع ماريو فورتسكيو هو سبب تلك النظرات الفضولية.

تسلق التل صعوداً نحو الڤيلا كان متعباً، لكنه كان يستحق الجهد للمنظر الخلاب الذي يطل المرء عليه من حديقتها. وبعيداً عن الرصيف كان الجو أكثر هدوءاً وأقل حرارة. فكلما زاد الارتفاع زاد تأثير الهواء وراحت رائحة زهر الليمون تملأ أنفها وهي تصعد.

بدا الرصيف من تحتها بقواربه المتحركة ومجموعة البيوت وكأنه منظر طبيعي على بطاقة بريدية.. وهي تتوقف في جزء من الطريق الشديد الانحدار، تصاعد صوت غنائي مرح ولو أنه غير مكتمل، بمقاطع لأغنية حب إيطالية.

في أي مكان آخر، كان لصابرينا أن تحس بأن الموقف مصطنع ومرسوم. لكن هنا في «بيلابايا» بدا طبيعياً أن يحدث، مع أن كل شيء كان يذكّرها بفيلم سينمائي. الصوت الغنائي الجمال الرائع للمنظر من فوقها وتحتها جعلها تحس بالرغبة في الضحك، بمتعة غير محدودة.

كان مضيفها هو الذي رد على المكالمة الهاتفية في الصباح التالي، وبينما كانت تتناول الطعام قطّبت جبينها استغراباً حين ناداها لتتلقى المخابرة، ونظر هو إليها باستغراب وهو يعطيها السماعة ويده على جهاز التكلم.

ـ شخص يتكلم بالنيابة عن السيد «ريكاردو غانتيوني».

أخذت الآلة منه متسائلة عمّاذا هذا كله. قالت بفضول:

ـ مرحباً.. أنا صابرينا رويس.

تحدث الصوت من الجهة الأخرى معها بإنكليزية مكتملة، لكن بلهجة أقل إغواء من صوت ماريو فورتسكيو الدافىء

الخفيض كما تذكره.

ـ أنا أتحدث بالنيابة عن السنيور «غانتيوني». أنا سكرتيره.

وكأنه يتوقع منها أن تتأثر بالاسم.. وخطر ببالها أن الرجل الكبير نفسه سمع بلقائها مع ماريو والصبي بالأمس ويريدوضعها بحزم عند حدودها.

ـ سنيور «غانتيوني»؟

كان مضيفها قد كشف لها أن ريكاردو غانتيوني لا يملك أكبر شركة الكترونيات في إيطاليا فحسب بل أنه كذلك آخر سلالة عائلة أرستقراطية قديمة جداً، وكان هناك شيء آخر في الاسم بدا لها مألوفاً لكنها لم تستطع أن تتذكره في هذه اللحظات.

وقال لها الصوت الناعم:

ـ سنيور غانتيوني يرغب في التحدث معك سنيوريتا رويس. رجاءً هل يمكنك زيارة «ڤيلا غانتيوني» في العاشرة والنصف من هذا الصباح؟

لم يكن طلباً كما أدركت صابرينا بشيء من الغضب، بل كان للسيد غانتيوني عادة الأمر والنهي، وأحست بإغراء أن تقفل السماعة في وجه المتكلم. لكنها تذكرت كيف أنها تمنت يوم أمس الاختلاء ولو لخمس دقائق مع السنيور «ريكاردو غانتيوني»، فتقول له رأيها فيه بالضبط.. ويبدو أنه لا يستبد فقط بالأولاد بل يصدر أوامر للغرباء ويتوقع منهم الطاعة.

قالت للسكرتير المنتظر:

ـ أولاً أود معرفة سبب توقع زيارتي للسنيور «غانتيوني» ولماذا يريد أن يراني؟

استطاعت تصور الصدمة على وجهه بسبب الصمت الذي تلا كلامها القاسي، ثم قال بصوت ممزوج بشيء من التصلب:

ـ لقد طلب مني السنيور أن أقوم بالاتصال، ولا شك أنه سيوضح لك أسباب دعوتك حين تأتين سينوريتا.

هذا لا شك فيه، ودار تفكيرها في دوامة لكنها لم تكن تنوي أن تسمح لأحد بإجبارها على طاعة أحد من دون سؤال. وقالت للرجل ببرودة:

ـ أنا لست واثقة.. على أي حال إذا وجدت أنني غير مشغولة بشيء آخر في العاشرة والنصف سأحاول أن أزوركم، وإلا أرجو أن تقدم اعتذاري للسينور «غانتيوني». عمت صباحاً.

أقفلت السماعة بسرعة ثم استدارت لتواجه مضيفها الذي عاد إلى الردهة في الوقت المناسب لسماع ردها الأخير. وبدت الصدمة على وجهه الأسمر الودي، وتساءلت كيف يمكن لـ «ريكاردو غانتيوني» كائناً من يكون أن يكون له مثل هذه الرهبة.

أنهت صابرينا فطورها وأخذت وقتها في اختيار ملابسها حتى استقر رأيها على فستان بسيط من «الجيرسي» الأخضر الفاتح، بكمين طويلين، وياقة على طراز ياقة القميص، مما أعطى لمعاناً مثيراً لبشرتها المسمرّة قليلاً.

مشّطت شعرها الأحمر البني إلى أن لمع كالبرونز المصقول وقررت أن منظرها النهائي مُرْضٍ، بارد لا يوحي بقصْد التأثير على أحد، وبغض النظر عن عدم اكتراثها برأي السنيور «ريكاردو غانتيوني».

خطر لها وهي تخرج، وللحظات قصيرة، أن الذهاب لوحدها قد يخلق انطباعاً خاطئاً لإيطالي أرستقراطي تقليدي. لكن.. لا يوجد أحد يمكن أن تطلب هي منه الذهاب معها. وعلى أي حال رأيه فيها لا يهمها أبداً.

مرت ساعة على الموعد المحدد قبل أن تسير عبر الطريق، وتقترب من «فيلا غانتيوني» من جهتها الإمامية. وتمنت في تلك اللحظة لو أنها كانت تحس بتوتر أقل، لكنها كانت مصممة على أن تحافظ على هدوئها مهما حدث ومهما كان سبب استدعاء «ريكاردو غانتيوني» لها. لكن على الرغم من تصميمها كانت يداها ترتجفان حين استدارت إلى الممر المحاط بالأشجار نحو الفيلا العتيقة.. خفقات قلب سريعة غير اعتيادية جعلت لوناً غير عادي ينطبع على وجنتيها.

بدت الفيلا قديمة عتيقة، لطيفة وجميلة. جدرانها البيضاء قاتمة قليلاً بسبب ظلال الأشجار المحيطة بها. كانت الحديقة تشابك ألوان، فسواد أشجار الصنوبر يمنح خلفية متناقضة مع «الجيرانيوم» القرمزي والزهري والميموزا الصفراء كالشمس، ومع الورود من كل نوع.

كانت شرفة طويلة تمتد على عرض المنزل كله، وأرضها المرصوفة نصف مغطاة بجرار حجرية مملوءة بالأزهار التي تبث العطر الدافىء الساكن. كان الباب موارباً فترددت لحظة قصيرة وقلبها يخفق مرة أخرى وهي تمد يدها نحو حبل الجرس اليدوي القديم الطراز.

بدا أن الرجل الذي رد على رنين الجرس كان يتوقعها. مع أن وجهه الشديد السمرة الصارم لم يكشف شيئاً وهو يدعوها إلى الدخول ويقود الطريق أمامها.

كانت الردهة مدهشة بالنسبة إليها، جميلة جداً وغير متوقعة، عريضة باردة، جدرانها مغطاة بأجمل النقوش، بألوان ناعمة خفيفة وعمل يدوي دقيق. لوحات لآلهة قديمة وسط مناظر تخطف الأنفاس بجمالها أكثر من مناظر الطبيعة خارجاً. حوريات وشبان

رائعو الجمال ذكَّروها بـ «ماريو فورتسكيو» وهم ينظرون إليها من جنتهم المرسومة بعينين سوداوين شفافتين. أشجار نخيل في أوعية زرع كانت ترتفع حتى السقف. الأرض تحت قدميها مرصوفة بالموزاييك الناعم الألوان، وإلى اليمين سلم رخامي رائع يستدير صعوداً إلى ما بدا لها أنه رواق يختفي إلى الجانبين في الظلال الباردة. لثوان قليلة شعرت أنها انتقلت فجأة إلى الوراء لثلاثمئة من السنوات!

سار الخادم في طريقه عبر الردهة ليدخل صابرينا في غرفة ضخمة مرتفعة السقف، مضاءة باردة كما الردهة، جدرانها مليئة بلوحات لرجال سمر، أرستقراطيي الطلعة، ونساء ذوات نظرة عدائية بعضهن جميلات جداً، على الرغم من تعابير وجوههن التي لا تشجع أبداً.

قيل لها أن تجلس بلغة إنكليزية عادية، وأُقفل الباب الكبير المزدوج خلفها. صارت لوحدها، لم يكن هناك صوت سوى تكتكة ساعة تلهيها وأخذت تتطلع حولها بفضول.

القيلا أكبر بكثير مما ظنت وهي تراها من على الرصيف أسفل التل، وأكبر بكثير من «قيلا بيلا» التي تقيم فيها. ولم يكن هناك صوت يُسمع سوى هدير محرك سيارة عابرة بين حين وآخر على الطريق الرئيسية في مكان ما فوق القيلا. ومرت عشر دقائق منذ وصول صابرينا وكانت لا تزال تنتظر. وأخذ غضبها يزداد أكثر فأكثر للمعاملة المتعجرفة التي تتلقاها، لكن لم يكن يلزمها الكثير من الذكاء حتى تخمّن بأن السنيور «ريكاردو غانتيوني» ينوي تلقينها درساً في دقة المواعيد.

بما أن وجودها هنا هو بناء لطلبه لم تستطع أن تجد سبباً يدعو لأن تُعامل هكذا. وقفت أخيراً تحمل حقيبة يدها تضمها إليها

بكلتا يديها، عيناها براقتان غاضبتان خضراوان. إذا كان السنيور غانتيوني يريد رؤيتها.. فعليه أن يأتي سعياً إليها.. لن تنتظره أكثر من هذا أبداً.

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ طلبات السيد أوامر

وصلت صابرينا إلى الباب المزدوج، وكانت يداها على الأكرة النحاسية المحفورة حين استدارت الأكرة بين يديها، تراجعت إلى الوراء بسرعة لتجنب الاصطدام بطرفي الباب.

الرجل الذي استقبلها كما افترضت بعد نظرة سريعة، كان السكرتير الذي تحدثت معه بالهاتف، وتساءلت عما إذا كان كل موظفي غانتيوني ذوي جاذبية مدمرة.

كان هذا الرجل أطول قامة من ماريو وأقل جمالاً. لكن له جاذبية شرسة تكاد تكون حيوانية، وكان طابعه الإيطالي أخف، مع أنها تعرف أن هناك اختلافات كبيرة بين الإيطاليين كما أي جنس بشري آخر.

كانت قسماته تبدو وكأنها محفورة من برونز.. ذقنه المربع فيه شق عميق، وعظام خديه سلافية المظهر تضيف شيئاً من الدراما إلى وجه يثبط الهمة فوراً وجذاب بشكل لا يصدق.. فمه عريض ومستقيم، وفي تلك اللحظة صارم وكأنه غاضب.

كان شعره الذي لم يكن أسود قاتم السواد، ينمو كثيفاً فيصل إلى أسفل عنقه.. وقفته وقفة كبرياء متعجرفة تفيض ثقة بالنفس.. لكن، ودون أي شك، أكثر شيء آسر فيه كان عيناه.

ما كانت صابرينا تعتقد أن هناك مرمحاً مناسباً في «بيلابايا»

لركوب الخيل، مع أن هناك ميدان سباق في «نابولي».. لكن كان من الواضح أن هذا الرجل كان يركب الخيل أو على الأقل يرتدي ملابس الركوب.. ورمى السوط الذي يحمله على كرسي وهو يدخل الغرفة، ونظر إلى صابرينا بفضول جريء.

ـ آنسة رويس؟

إنه ليس الرجل الذي حدثها في الهاتف.. فعدا عن استحالة أن يلتقيها سكرتير بثياب ركوب الخيل، كان صوته أعمق وأكثر رنيناً ويعطي الانطباع بأنه لم يخدم أحداً أبداً ولا بأية طريقة.

هزت رأسها بارتباك وقلبها في حلقها، وقد بدأت تشك في هويته:

ـ أنا صابرينا رويس.

نظر بسرعة في الغرفة:

ـ جئت وحدك؟

ـ أجل سنيور.

طافت العينان المتقدتان عليها بتقييم سريع بارد، وأحست أنها عانت ما يكفي من قلة التوقير على يدي هذا الرجل بإبقائها منتظرة..

ـ أعتقد أنك تعرفين ابن خالي.

إذن ماريو فورتسكيو هو ابن خاله، ولا شك الآن أن هذا الرجل الرهيب هو ريكاردو غانتيوني.. وهو ليس الرجل المسن المتعب الذي تصورته، بل صورة مختلفة تماماً.

قالت وهي تكافح هادئة باردة:

ـ إذا كنت تشير إلى السنيور فورتسكيو.. فقد التقينا بالأمس.

كان تصميمها على البقاء باردة هادئة يتراجع بسرعة أمام

التأثير الغريب المثير للاضطراب الذي له على أحاسيسها.. واستطاعت أن ترى الآن بسهولة أكبر كيف يتمتع بطاعة ورهبة ليس على موظفيه فقط وعائلته، بل على غرباء مثلها كذلك.

قالت تشرح له:

ـ كنت جالسة على رصيف الميناء بالأمس حين جاء السنيور «فورتسكيو» والصبي الصغير.. فأمضينا جزءاً من الوقت معاً.

مرة أخرى تلك النظرة الباردة المقيّمة من الرجل إليها:

ـ وكان هذا ما يكفي لتشجيع ماريو! فأنت امرأة شابة جميلة جداً.

لكن الكلمات لم يكن فيها أي لمحة إطراء أو غزل، مجرد تقرير أمر واقع، وكرهت صابرينا تلك الكلمات.. كان واضحاً ما يلمح إليه مما أغضبها جداً لسوء حكمه.

قالت بكراهية متصلبة:

ـ أعتقد أنني أنا من كلمتهما في البداية.. ولم يكن لي دافع خاص. والسبب أن الصبي الصغير كان يضحك، ومن عادة الإنكليز الود والتأدب.

ارتفعت زاويتا فمه تنضحان بشيء من التسلية:

ـ لكن ابن خالي كان متلهفاً جداً لتوثيق التعارف دون شك..

هل تنوين رؤية ماريو مرة أخرى آنسة رويس؟

أحست بالغضب والكراهية يتزايدان في نفسها، لكن مع نوع غريب من الإثارة كذلك. لا حق له أبداً في أن يستجوبها حول لقائها بـ «ماريو فورتسكيو» أكان ابن خاله أم لم يكن.. ولا نية لديها في أن تتركه ينجو بهذا.

قالت بثبات:

ـ هذا أمر يعتمد بكل تأكيد على رغبة السنيور «فورتسكيو»

ورغبتي.

رد بصوت هادىء فيه شيء من برودة وقساوة الفولاذ:

ـ ليس بالضبط! وماريو ليس مغفلاً!

نظرت صابرينا إليه وعيناها الخضراوان تشتعلان:

ـ أتعني أنك.. إذا كان ابن خالك يتركك.. تهدده سنيور. هذا من شأنه.. لكنني لن أقبل تصرفك.. وإذا كان هذا كل ما لديك لتقوله لي.. فلسوف..

قاطعها بخشونة:

ـ لا.. ليس هذا كل شيء.. أنا ببساطة أسعى للتأكد أن ما ادعيته حين تحدثت مع ابن خالي هو صحيح آنسة رويس.. أم أنك مجرد واحدة من.. أوهامه!

كانت لهجته كافية لإيصال ما يعنيه بوضوح تام.. وقبضت يدا صابرينا بشدة على حقيبة يدها.. كانت ترتجف كورقة شجر ولم تشعر بغضب كهذا طوال حياتها.

قالت بصوت منخفض متوتر:

ـ لا أستطيع أن أرى ما الذي يمكن أن يعنيك هذا.. لكنني فعلاً مربية أطفال كما قلت للسنيور فورتسكيو والآن سنيور.. سأذهب.. أرفض أن أبقى هنا دقيقة أخرى لأصغي إلى إهاناتك! ليس لك الحق إطلاقاً في أن تكلمني هكذا.. وأطلب منك اعتذاراً!

أصبح الجو بينهما مشدوداً كجلد طبل.. وحرقت العينان الزرقاوان القاتمتان وجهها بإحساس نار وثلج، ترسلان الرجفة في جسدها كله:

ـ لقد جئت إلى هنا هذا الصباح وحدكِ سنيوريتا.. وواضح أنك تكلمت بالأمس مع ابن خالي وأنت وحدك كذلك.. وكان

من حقي أن أفترض ما افترضته. فتاة إيطالية كانت ستكون أكثر حذراً بكثير على سمعتها.

ردت صابرينا بسرعة:

ـ أنا لست فتاة إيطالية.. وفي مثل هذا الظرف لا أستطيع سوى أن أشكر الله على هذا! ولا زلت أصرُّ على أنك مدين لي باعتذار لما قلته لي!

للحظات استمرت نظرته الباردة، ثم بدا أن فمه المشدود استرخى قليلاً ورفع رأسه، وكأنه يعترف على مضض بحقها في اعتذار:

ـ حسن جداً سنيوريتا.. يبدو أنني أسأت الحكم عليك، وربما كنت خشناً جداً معك.. ويبدو كذلك أن ادعاءك أنك مربية أطفال هو صحيح!

قالت:

ـ أستطيع أن أتصور لماذا شككت بالأمر!

ـ أنا أعرف ابن خالي آنسة رويس.. وواضح أنك لست جذابة جداً فقط.. بل معتادة أن تتجولي وحدك.. وهذا مزيج لا يمكن لماريو أن يقاومه أبداً.

ـ وهل ظننتني... متطفلة سهلة المنال؟

متذكرة كياسة ماريو فورتسكيو وتوددة البالغ، اضطرت لأن تعترف في نفسها أن شكوكه ربما لها بعض الأساس من خبرة سابقة، وأخفضت عينيها حين رأت اليقين في عينيه.

ـ إنه تخمين طبيعي سينوريتا.

وضع يده فجأة عند مؤخرة رأسه يدعك شعره الكثيف الأسود.. ثم بيده الأخرى أشار أن تجلس على أحد المقاعد.. بعد تردد قصير جلست باحتشام وقدماها على الأرض معاً، دون أن

تضع ساقاً فوق ساق كعادتها.

فجأة أحست بالفستان الأخضر الفاتح أقل احتشاماً مما هو. وأحست أكثر من أي وقت مضى بمدى انفتاح الياقة حتى أنها رفعت يدها إليها، أصابعها تحاول ضم جانبي الياقة معاً.

بقي واقفاً وخمنت صابرينا أنه ينوي الاحتفاظ باليد العليا، وسأل بهدوء:

ـ كنت على وشك الذهاب حين دخلت؟

أخذ سيجارة من علبة على الطاولة وأشعلها.. وهو ينفث الدخان ببطء من فتحات أنفه، بدا بدائياً وباعثاً للاضطراب، بحيث سرت قشعريرة في كيانها. ولم يعرض عليها سيجارة واستطاعت أن تتصور أنه رجل يكره رؤية النساء تدخن ولا يقدم لهن واحدة ولو على سبيل اللياقة.

قالت:

ـ كنت ذاهبة لأنني اعتبرت أنني انتظرت بما يكفي.

ارتفع حاجبه وضاقت عيناه خلف دخان السيجارة:

ـ مع أنك وجدت من المناسب أن تتأخري ساعة عن الموعد؟

أحست صابرينا بنفسها تحمر انفعالاً ورفعت ذقنها تحدياً:

ـ لست معتادة على تلقي الأوامر بالالتزام بمواعيد لم أسع إليها، ولست معتادة على أن أبقى منتظرة سنيور غانتيوني.. أعتقد أنك السنيور غانتيوني؟

عاد الاسم يدور في ذاكرتها مجدداً وحاولت التذكر أين سمعت الاسم من قبل.

رفع رأسه قليلاً دون أن يبدو عليه التأثر بمحاولتها وقفه عند حده:

ـ أنا لا أضطر عادة إلى التعريف عن نفسي آنسة رويس.. أنا

ريكاردو غانتيوني.

أدركت أن ثقته بنفسه لا تتزعزع.. لكن شرارة تصميم جعلتها تُظهر برودة كانت بعيدة جداً عن الإحساس بها.. وقالت له بصوت خفيف:

ـ كنت أحاول التفكير أين سمعت الاسم من قبل سنيور غانتيوني.

للحظات لم يقل شيئاً، بل أخذ ينظر إليها بثبات عبر دخان أزرق ثم قال:

ـ إذن أنت لا تعرفين اسمي، مع ذلك جئت إلى هنا لتريني.. ووحدك.

ردت بسرعة وربما أكثر من اللازم:

ـ واقع أنني جئت لا دخل له بك.. السبب هو أنك وصيّ الصبي الصغير.. فقد بدا لي.. حزيناً، حتى أنني.. تأثرت.

ـ وأردتِ أن تري بنفسك الظالم الذي يسيء معاملته ويجعله يبدو حزيناً، صحيح؟

أدركت أنه يكره الاتهام بأنه يسيء معاملة الصبي الصغير أكثر من كراهيته لأي شيء آخر.. فقالت معترضة:

ـ لم أقل هذا.

تذكرت في لحظتها لماذا بدا لها الاسم مألوفاً حين ذكره لها مضيفها.. في السنة الماضية، وفي وقت ما، تتذكر أنها قرأت في صحيفة بريطانية شيئاً عن مليونير صناعي قتل في حادثة سيارة، وعن صبي صغير ورث ثروة طائلة، وكان اسم الرجل غانتيوني.. لكن هذا الصبي يدعى «ريڤيلو» حسب قول ماريو فورتسكيو.

أعادها صوت ريكاردو غانتيوني إلى وعيها:

ـ طونيو هو ابن أخي الراحل، آنسة رويس.

رفعت نظرها إلى وجهه القاتم بعينيه الملونتين.. وأكمل:

ـ أنا وصيّ عليه لأن أمه ميتة أيضاً.. وأنا أفعل ما بوسعي لأجله.

ـ أوه.. أنا واثقة من هذا سنيور غانتيوني.

ـ هل هناك شيء خاطىء.. آنسة رويس؟

كان لصوته رنة نفاد الصبر، وتراجعت صابرينا عن التساؤلات التي تمر في ذهنها لترفع رأسها وتراه يحدق فيها وكأنه يقرأ أفكارها.. وأكمل:

ـ ستجدين آنسة رويس أن تلك النظرة المتسعة العينين الحزينة مخادعة.. طونيو يفتقد إلى أبيه، لا أنكر هذا.. لكن لو قابلت ابن خالي ماريو منذ عشرين سنة، لوجدت طفلاً حزيناً يشابه طونيو الآن.

ـ أوه.. فهمت!

وجدت من السهل تقبل هذا الواقع، لكن وهي لا تزال مهتمة بشأن طونيو بدأت تتساءل متى سيفصح ريكاردو غانتيوني عن سبب استدعائها. وأذهلها أن تجده فاتناً كرجل حتى أنها كرهت أن تنتهي المقابلة وأن لا تراه مجدداً.

سألها بصوت منخفض:

ـ مع ذلك فهو يلامس قلبك.. نعم؟

قالت:

ـ حسن جداً.. والداه قتلا في الحادثة.. وما من ثراء سيعوضه عن هذا.

ضاقت عينا ريكاردو غانتيوني وهز رأسه ببطء:

ـ إذن كنت تعرفين من أنا!

ـ سمعت عنك من قبل.. لم أستطع تذكر المناسبة لكنني

تذكرت الآن.

ـ شكراً لك!

كان في صوته العميق الهادىء سخرية، وظنت أنها شاهدت شيئاً من التسلية في عينيه.. لكنها عرفت كذلك أن كبرياءه تلقى لطمة، ولو صغيرة، من اعترافها. فأكملت بحذر:

ـ مضيفي ذكر لي شيئاً عن أعمالك.. كنت أحاول أن أتذكر شيئاً عن حادثة السيارة، وكنت أعرف أن الأمر يتعلق بصبي صغير.. وهذا كل ما كان يثير اهتمامي.. فالصناعيون أصحاب الملايين لا يهمونني كثيراً، سنيور غانتيوني.

وقف صامتاً للحظات.. بينما جلست صابرينا تنتظر مندهشة من نفسها.

ـ كونك مربية أطفال هو سبب إرسالي في طلبك.

ـ حقاً؟

ـ قال لي ماريو إنك تبحثين عن وظيفة كمربية أطفال.

ـ أجل.. أجل.. لكن..

لوح بيده يدعوها إلى نسيان الشرح، وقال:

ـ أنت مؤهلة فعلاً للتعامل مع احتياجات ولد صغير؟

ـ أجل.

لم تكد تصدق ما تسمع. إنه فعلاً يعرض عليها العمل له، أن تعتني بالصبي الصغير الذي يهتم به كثيراً بعد أن أقنع نفسه إنها ليست إحدى معارف ماربو العابرات، وهي لا تلومه لهذا.

وأكملت:

ـ لكن سنيور غانتيوني، إذا كنت تعني طونيو فهو لا شك بحاجة إلى المدرسة وليس إلى خدمات مربية.

عيناه المثلجتان عادتا إلى التفرس بها بعدم رضى، مما يُظهر

أنه لا يحب التساؤل حول قراراته.

ـ طونيو لم يبلغ الخامسة من عمره بعد.. وأنا من سيحكم متى يكون على استعداد للذهاب إلى المدرسة، سينوريتا.

ـ أجل.. أجل.. بالطبع.

ـ أنا بحاجة إلى من يعتني به إلى أن يصبح في العمر المحدد للمدرسة.. لكن لا ضرر في أن يتلقى التعليمات الأساسية في مواضيع محددة.

ـ تعليمات أساسية في..

ـ أرجوك أن تسمحي لي بأن أنهي كلامي آنسة روبس.

الجو السلطوي الواثق وضعها في مكانها الصحيح، ثم نفث سحابة طويلة من الدخان من بين شفتين مشدودتين قبل أن يعود إلى الكلام:

ـ طونيو كما قال لي نسيبي بدا معجباً بك من خلال اللقاء القصير بينكما، وبما أنك تبحثين عن عمل كمربية أطفال أظن أنك ستكونين مفيدة لنا.

مال إلى الأمام يطفىء ما تبقى من السيجارة في منفضة على الطاولة قربها. الطاولة كانت منخفضة، والحركة جاءت به إلى مقربة منها للحظات.. وهو يتراجع لامست يده يدها، فأجفلتها اللمسة الدافئة حتى أنها دونما وعي تراجعت عنها، تقاوم المشاعر التي تصاعدت داخلها.

هذا الرجل غريب.. غريب ثري، يعرض عليها عملاً لا أكثر، ومن السخف أن تتأثر به.. مع ذلك من الصعب جداً أن تبقى غير مدركة له كرجل، وهو يقف قريباً ويداه خلف ظهره وكأنه إله الانتقام الإغريقي يشرف من فوق عليها.. وقال لها:

ـ يجب أن أطلب منك رداً فورياً.. ففي حال رفضك للوظيفة

سأكون مضطراً لترتيبات أخرى.

بدا من الواضح أنه يعتبر إمكانية الرفض محتملة أكثر وهو مستعد كما يبدو لإنهاء المقابلة فوراً.. راح رأس صابرينا يلف ويدور بألف سبب وسبب يجعلها ترفض العمل الذي يعرضه عليها، وليس أقلها أنها ليست معلمة مؤهلة، وهو قد قال إنه يريد مؤهلة تعطي الصبي المبادىء الأساسية.

السماء وحدها تعرف أية كفاءات أكاديمية يتصور أنها تمتلك لكن من الواضح أنها توحي بأكثر مما تمتلك.. حتى أنه قد يكون عنده انطباع أنها تتكلم الإيطالية.. إضافة إلى ذلك هو متعجرف، واثق من نفسه إلى درجة لا تحتمل، وهو أكثر من يبعث الاضطراب في نفسها ممن التقت بهم في حياتها.. ولا بد أنها ستكون مجنونة تماماً لمجرد التفكير بالعمل له.. لكنها في الحقيقة تريد هذا.

بعد صمت طويل أحست خلاله أن العينين المثيرتين للاضطراب تراقبانها عن كثب، رفعت نظرها وأخذت نفساً عميقاً. وقبل أن تتمكن من قول ما تريد قوله قاطع ذلك الصوت البارد أفكارها:

ـ أعتقد أنك تحاولين اتخاذ القرار آنسة رويس.. ويجب أن أذكرك أنني طالبت برد فوري.

بدأت:

ـ كنت على وشك..

مرة أخرى قاطعها الصوت النافد الصبر:

ـ بالتأكيد هذا ليس بالقرار الصعب!

ـ لكنني لست معلمة مدرسة سنيور غانتيوني! أنا لست مؤهلة للتعليم، حتى للأطفال الصغار أمثال طونيو.. أنا ممرضة، مربية،

لكنني لست معلمة.

استشعرت من ملامحه أن إمكانية حصولها على العمل ستنزلق بعيداً لو أنها وضعت المزيد من العراقيل.. وواضح أن ريكاردو غانتيوني ليس بالرجل الصبور، وما لديه من صبر ينفد بسرعة.

قال لها متصلباً:

ـ بإمكانك تسمية نفسك ما شئت.. أنا مهتم فقط بقدرتك على الاعتناء بطونيو.. إذا لم تكوني مؤهلة لهذا فلسوف أستنتج أنك كنت تخدعينني.. آنسة رويس.

كان هناك تهديد بارد في صوته البارد، ورفعت صابرينا نظرها إليه ساخطة، التساؤل حول قدراتها المهنية أمر لن تسمح به:

ـ أنا لم أخدعك!

ـ إذن أفهم من هذا أنك تقبلين عرضي.. في الخامسة من عمره لا يحتاج طونيو إلى بروفسور في الجامعة!

كانت مقطوعة الأنفاس مرتبكة من جراء وضعها هكذا وبسرعة مخيفة.. وكل ما تستطيعه هو أن تنظر إليه بعينين هادئتين، لعدة لحظات، ثم تهز رأسها ببطء وتقول:

ـ أنا.. بالإمكان أن أجرّب.. وما رأيته من طونيو، ولو كان قليلاً، أعجبني!

ـ الأهم أن يُعجب طونيو بك. وهذا هو سبب توظيفي لك.. فلقد التقى طونيو بك ولو لوقت قصير، ولن تكوني غريبة تماماً عنه.

لانت صابرينا بلباقة، وأحست أن ليس أمامها غير هذا.. وكل محاولة أخرى قتال في معركة خاسرة..

ـ سأفعل أفضل ما بوسعي. لكن سنيور غانتيوني.. أنا، ولا أعرف ما إذا كنت تعرف، لا أتكلم الإيطالية.

www.elromancia.com

لمعت العينان الباردتان:

ـ بالطبع لا تعرفينها، وإلا لكنت استخدمتها ولو كانت سيئة. معظم الناس ممن يعرفون القليل القليل من لغة أجنبية يصرون على استخدامها، مهما كانت غير مفهومة لأبنائها الأصليين.

تجاهلت سخريته وأكملت الضغط في وجهة نظرها:

ـ طالما تفهم أن أي شيء أعلمه لطونيو سيكون بالإنكليزية.

ـ طبعاً، فأنا أرغب في أن يتكلم الإنكليزية بطلاقة، كما الإيطالية.. ولسوف تتناسبين مع هذا الغرض بشكل ممتاز لفترة ما.

ـ إلى حين تبدأ المدرسة؟

ـ وربما لفترة أبعد من هذه.. إلى ما بعد أن يستقر على نظام المدرسة.. فلسوف يحس بالحرمان لو أنه ابتعد فجأة عن شخص أصبح متعلقاً به.

فكرت صابرينا ملياً كيف أوصلت نفسها إلى كل هذا.. لقد أمضت شيئاً من الوقت مع رجل وصبي صغير كانا مارين بها، وها هي بعد يوم تواجه البقاء في إيطاليا لفترة غير محددة مسؤولة عن طفل يساوي ثروة.

من يصدق من أصدقائها في انكلترا هذا، لأنها نفسها لا تكاد تصدق.. وقالت:

ـ أنا.. آمل أن أفي بما تتوقعه مني سنيور.

نظر إليها بعينيه الزرقاوين بثبات:

ـ وأنا آمل هذا كذلك آنسة رويس.. ستبدأين العمل غداً صباحاً وستتلقين أجرك لكامل الشهر، بالطبع سيبحث سكرتيري معك التفاصيل، وإذا كان لديك أية تساؤلات أرجو أن تقابليه.

بدا مستعداً لترك الأمور هكذا واستدار نحو الباب.. فقالت:

ـ أوه.. لكن.. سينيور غانتيوني..!

التفت إليها بنفاد صبر، وأحست أنه منع نفسه بصعوبة من القول لها بأن تصرف النظر عن الأمر كله.. لكن طونيو أحبها وهي تتناسب مع أغراضه الآن.. وضاقت عيناه مجدداً، وكان لقسماته المنحوتة بدقة نظرة قاسية لا رحمة فيها جعلت نبضات صابرينا تتسارع بقلق وهي تتجنب عينيه..

سألها:

ـ أترغبين في العمل لي أم لا آنسة رويس؟

ودون أن تدرك هزت رأسها، فأكمل:

ـ إذن ستفعلين ما أقرره، حين أقرره.. عمت صباحاً آنسة رويس!

استدار على عقبيه وسار عبر الغرفة، ساقاه الطويلتان القويتان تقطعان المسافة في لمح البصر.. بينما جلست صابرينا تحدق به.. ثم انحنى ليستعيد سوط الركوب الذي رماه ساعة دخوله.. فوقفت وفمها مشدود بتصميم:

ـ سنيور غانتيوني!

استدار إليها بسرعة، عيناه الزرقاوان الجليديتان تبرقان تحذيراً والسوط يضرب حذاءه اللماع المرتفع.

ـ سنيوريتا؟

ترددت في تلفظ الاحتجاج في وجه مثل هذا التحذير، وهزت رأسها:

ـ أنا.. أنت لم تزعج نفسك أن تسأل ما إذا كان من الملائم لي أن أبدأ في الغد.

اشتد ضغط شفتيه بقوة.. وبدا على الوجه الفاتن بوجنتيه بداية غضب رهيب.. وأخذ السوط الممسوك بقوة بين أصابعه،

يضرب حذائه المرتفع على شكل تهديد وهو ينظر إليها:

ـ قلت لي إنك في الوقت الحاضر دون عمل آنسة رويس.. وتفتشين عن عمل.. ولقد عرضت عليك هذا العمل.. ولو رغبت في العمل لي هناك شيء يجب أن تفهميه بوضوح منذ البداية. أنا أتوقع أن تنفذ رغباتي دون سؤال ودون تأخير.. هل تفهمين هذا؟

كان غضبها قد بدأ يهدد بإظهار نفسه وتخريب كل شيء.. فابتلعت ريقها بصعوبة لتبتلع معه الكلمات التي تصاعدت إلى شفتيها، وهزت رأسها ببطء:

ـ أجل.. سنيور غانتيوني.

ـ عظيم!

استدار مرة أخرى وخرج وأقفل الباب المزدوج خلفه، بينما تهاوت صابرينا على مقعد وهي مقطوعة الأنفاس، تهز رأسها غير مصدقة، لا إذعانها، ولا أحداث الدقائق القليلة الماضية.

افترضت أن عليها أن تشعر بالتشريف لأنها اختيرت لمثل هذا العمل.. وبكل تأكيد الإقامة في «بيلابايا» تعني أنها سترى ماريو فورتسكيو تكراراً، هذا بالطبع إذا سمح مخدومها لها بذلك، لكنها كانت متأكدة من أمر واحد: ستجد صعوبة كبرى في المحافظة على أعصابها أمام رب عمل عجرفته لا تحتمل، مثل ريكاردو غانتيوني.

٣ ـ سوف تعتذرين!

وجدت صابرينا نفسها متوترة حين وصلت إلى ڤيلا غانتيوني في الصباح التالي.. وأحست بالخوف وهي تسير في الممر المظلّل نحو الڤيلا من أن يكون ريكاردو غانتيوني قد فكر مرة ثانية منذ الأمس، وربما سيرسلها خائبة قبل أن تطأ قدمها منزله مرة أخرى.

على أي حال أدخلها إلى المنزل الخادم نفسه الصارم الوجه الذي رأته بالأمس. لكنه اليوم طلب منها أن تنتظر في الردهة بينما يحضر لها سكرتير السنيور غانتيوني، الشاب الذي تكلمت معه عبر الهاتف. حين جاء بوقع أقدام خافتة من على السلم خلفها، انحنى فوق يدها وقدم نفسه باسم «أندريا ماريولي».

كان جميل الطلعة جداً، وهذا أمر لم تتوقعه مما ذكّرها أيضاً بلوحات الشبان المرسومة على الجدران خلفه. وهذا كان تشبيهاً وليد لمعان البهجة في عينيه وهو ينحني فوق يدها.. كان أقل طولاً من مخدومها ومن ماريو فورتسكيو، وله شعر أسود مجعد وبشرة سمراء ناعمة، ولا بد أن يصبح مترهلاً جداً بعد بضع سنوات.

قال بنعومة:

ـ أنا مكلف أن أبلغك بالترتيبات المالية التي أقرها لك

السنيور غانتيوني.

ـ أجل.. طبعاً سنيور ماريولي.

ابتسامتها شجعته على ما يبدو وأشرقت عيناه السوداوان بدفء:

ـ ستأتين معي من فضلك سنيوريتا؟

ـ سنيوريتا رويس.

رنّت الردهة بصوت ماريو فورتسكيو العميق الدافىء فاستدارت صابرينا تبتسم بحذر، فهي الآن وقد عملت لابن عمته، لا تعرف كيف تتصرف معه.. على أي حال لم يكن هناك حاجة لمثل هذه الشكوك فقد بدا أنه يسيطر على الموقف.

ـ ستعملين معنا! همم!

وقبّل أطراف أصابعه بمبالغة وأكمل:

ـ أوه.. أنا.. سعيد جداً!

ـ شكراً لك سنيور.

أحست بلمعان معترض في عيني السكرتير وهو يراقبهما، وتمنت أن يكون ماريو فورتسكيو أقل حماسة.. صحيح أنه السبب في حصولها على العمل، لكنها لا تحتاج إلى التخمين فيما دعاه إلى هذا فالأمر ظاهر بما يكفي في العينين السوداوين الدافئتين اللتين تنظران إليها نظرات كلها معنى.

قال لها:

ـ يجب أن أريك حدائقنا.

لاحظت العبوس الذي جعّد وجه اندريا ماريولي الجميل استباقاً لاعتراضها.. وقال مقاطعاً:

ـ لكن سنيور.. قيل لي..

قاطعه ماريو متعالياً:

ـ سأحضر السنيوريتا إلى المكتبة حين نكون مستعدين لهذا اندريا.. ولا داعي لأن تنتظر.

ـ نعم سنيور.

بدا أنه أقر بالهزيمة.. واختفى السكرتير صعوداً على الدرج إلى الرواق القائم خلفهما.

ابتسم ماريو لها مسروراً لانتصاره البسيط.. لكن صابرينا لم تكن راضية.. ولسوف تكون هناك قضية ما قد يقوله ريكاردو غانتيوني حول عصيانها لتعليماته في اليوم الأول، وهي ليست سعيدة لهذا.

ـ أنت لا تمانعين لأنني أرسلته بعيداً سنيوريتا؟

ابتسامته الواثقة صرفت التفكير باعتراضها، ولم تستطع مقاومة ابتسامة لفتنته الجريئة المقنعة. إنه واثق من نفسه بقدر ابن عمته، لكن أقل عدوانية وتعجرفاً.

ـ لقد أشبعت غروري سنيور فورتسكيو.. لكن كان يجب أن أذهب مع السنيور ماريولي.. فعلى الأرجح سيغضب السنيور غانتيوني كثيراً مني لأنني لم أفعل ما طلبه في يومي الأول هنا.

تجهّم وجه ماريو وفتح يديه دلالة اعتراف:

ـ أعتقد أنك على حق.. لكن أولاً سنيوريتا..

أمسك يديها بكلتا يديه ورفعهما إلى شفتيه.

ـ أولاً.. ستوافقين على مناداتي ماريو.. نعم؟

أحست بدقات ملحة على ضلوعها حيث بدأ قلبها يستجيب إلى تودده.

ـ أنا.. أنا.. لست أدري.. فأنا لست واثقة من أن السنيور غانتيوني سيوافق على هذا.

ـ آه.. لماذا يعارض ريكو مناداتك لي باسمي؟

ـ لا أعرف حقاً.

ـ إذن ستناديننى ماريو.. نعم؟

ضحكت بصوت منخفض:

ـ حسن جداً.. سأناديك ماريو!

ـ جيد جداً.

قبّل أصابعها مجدداً، وأكمل:

ـ الآن سنذهب لرؤية الحدائق.. لا؟

ـ لا أظن هذا.. أنا واثقة أن هناك الكثير مما يجب أن أراه، لكن..

ـ لسوف أريك كل شيء.. همم؟ ليس الحدائق فقط بل كل شيء! الريف، نابولي.. آه.. بيليسيما نابولي!

قبل أطراف أصابعها مرة أخرى دليل الإعجاب، ولمعت عيناه حتى أنها اضطرت للاستجابة.

ـ سأحب أن أرى كل شيء.. وسيعجبني أن تريني أنت كل هذا ماريو.. لكنني لا أعرف حتى الآن كم من الوقت سيتاح لي.

نظر إليها بصمت ثم مال فجأة ليقبل يدها بخفة مجدداً، مما دعاها لصيحة دهشة منخفضة:

ـ صابرينا.. أظنك تقلقين كثيراً لأمر ريكو.. أنا لم أحصل لك على هذا العمل لتمضي كل دقيقة من يومك وليلك مع طونيو.. مفهوم؟

مرر نظرته على وجهها وجسدها، وابتسم:

ـ أنت جميلة جداً لتضيعي هذا الجمال على بامبينو!

لم تؤثر فيها هذه الكلمات بما فيه الكفاية مع أنها تعرف تماماً معناها المصطنع.. وأحست بدقات قلبها المتسارعة المحذّرة لها، وهي تسعى لأن تبقى متعقلة وأن لا تنجرف أمام شيء لا يمكن

مقاومته.. وقالت تذكّره:

ـ لكنني أعمل لدى السنيور غانتيوني.

هز كتفيه دون اكتراث:

ـ حتى ريكاردو نفسه لا يتوقع منك قضاء كل دقيقة مع طونيو.. وهو لن.. كيف يقال؟ يأكلك، إذا أمضيت بعض الوقت معي. في الواقع سوف يتوقع هذا في مثل هذه الظروف.

في مثل هذه الظروف! لقد أقنع ابن عمته بتوظيفها لرعاية الصبي، لكن، وكما قال، حتى ريكاردو غانتيوني لن يكون جاهلاً للسبب الحقيقي الكامن خلف دعمه لها. وتساءلت فجأة ما إذا كان هذا قد حدث من قبل.

ـ عادة هل.. يوظف ابن عمتك الناس الذين تدعمهم؟

ـ لا.. كاراميا، ريكو لم يوافقني من قبل على ذوقي.. ويجب أن تتلقي التهنئة! أما بقية العائلة فهم سيحبونك جداً.

ـ بقية.. العائلة؟ كم شخصاً يوجد منكم، ماريو؟

هز كتفيه دونما اكتراث:

ـ اثنان فقط.. لا يمكن احتساب اندريا مع انه يعيش هنا.. لا تجزعي، لن يزعجك أحد.. هناك فقط موبرا وأمي، لم تلتقي بهم بعد.

لم تسأل من هي موبرا.. لكنها قدّرت أن تكون إما خالة أو عمة أو شقيقة تعيش في منزل العائلة.. فهي تعرف أن من الشائع في العائلات اللاتينية أن يعيش الجميع تحت سقف واحد.. وتنهدت استسلاماً:

ـ أوه.. حسناً.. أتوقع أن أعتاد عليكم جميعاً.

ـ نعم.. بالطبع ستعتادين!

وأكمل:

ـ الآن إذا كنت لا تريدين رؤية الحدائق معي سنذهب لنجد اندريا قبل أن يكون لديه الوقت لإخبار ريكو بأمري!

بدا واضحاً جداً أن هناك نوعاً من التنافس بين ماريو وسكرتير ابن عمته الجميل الطلعة.

أمسك ماريو يدها يجرها معه عبر الردهة نحو السلم الرخامي الرهيب المظهر، يصعد الدرجات العريضة بخطوات طويلة أليفة حتى أنها وجدت صعوبة في اللحاق به.

كانت الأرض مكسوة بالسجاد السميك الفخم وقد غاصت فيه قدماها حتى الكاحل.. ولم يكن لديها وقت لتلاحظ أكثر من أمر واحد وهو أن الجدران مطلية بالأبيض ومليئة باللوحات، قبل أن ينفتح باب بعيد في الرواق ويظهر اندريا ماريولي منه.

نظر إلى ماريو ولمعان الشر في عينيه، وأشار برأسه:

ـ سنيور غانتيوني يطلب أن تذهب إليه فوراً سنيور.

قطّب ماريو وتنهد:

ـ سي.. سي.. بين انتيسو!

رفع يد صابرينا مجدداً إلى شفتيه:

ـ سأراك قريباً كاراميّا.. أريفيدوتشي!

ناداها صوت اندريا وهي تراقب ماريو ينسحب بسرعة:

ـ سنيوريتا!

فابتسمت له معتذرة:

ـ أنا آسفة سنيور ماريولي.. أرجو أن لا تكون واجهت صعوبة كبيرة في الشرح للسنيور غانتيوني.. أعني حول عدم مجيئي معك.

ـ آه.. لا سنيوريتا.. سنيور غانتيوني يفهم..

أحست بارتفاع اللون في خديها للمضامين التي في كلامه

ولمعان عينيه.. يبدو أنها بالنسبة لبعض أهل بيت غانتيوني، واحدة من معارف ماريو.

قادها اندريا إلى غرفة بدا واضحاً أنها تستخدم كمكتبة.. غرفة طويلة باردة بزخرفة أقل من الغرفة التي شاهدتها في الأسفل يوم أمس.. بيضاء الجدران برّاقة بشكل مبهر بنور الشمس التي تدخل عبر نوافذ مرتفعة مقنطرة.. كانت أشكال صغيرة من الأنوار تتلاعب على السقف المرتفع المنقوش، ولزمها بضع لحظات لتلاحظ ما هي.. إنها أشكال متغيرة جميلة يعكسها الماء.. ربما من بركة أو نافورة.. وكان هناك حديقة تحت النافذة، لأنها أحست دونما أي خطأ برائحة زهر الليمون الحلوة الزكية.

جلس اندريا خلف طاولة في زاوية الغرفة وأشار إليها كي تجلس في مقعد مواجه له.. ثم قلّب للحظات بعض الأوراق يقصد بحركته التأثير عليها، ثم ابتسم لها عبر الطاولة:

ـ آه! والآن سنيوريتا!

بدأ يشرح لها الترتيبات المالية التي خصصها رب عمله لها.. وكانت هذه الترتيبات كريمة إلى الحد الأقصى، ولم يكن عندها أي تذمر.. لكنه لم يسألها مرة ما إذا كانت هذه الترتيبات تناسبها.. أو ما إذا كانت قد غيرت رأيها.. وأدركت أن مثل هذا الأمر غير وارد بالنسبة إليه فما من أحد رفض من قبل العمل لغانتيوني.

بعد أن انتهى من سرد الترتيبات، وقف ينحني باختصار وابتسامة عريضة على وجهه، وكأنه سعيد لجهوده.. وقال:

ـ سآخذك الآن إلى طونيو.. إنه ينتظرك سنيوريتا.

واضح أنه من المفترض أن تُدفع إلى عملها دونما تأخير.. لكنها لم تكن مستعدة لأن تذعن للسرعة التي تعتبر عادية كما يبدو

في منزل غانتيوني.

كانت الشكوك تساورها في إمكانية أن تعيش في منزل واحد مع ماريو.. وتساءلت ما إذا كان بالإمكان أن تأتي يومياً إلى الڤيلا بدل أن تسكن فيها.

ـ أتساءل سنيور ماريولي ما إذا كان من الممكن أن أبقى في ڤيلا بيلا في الوقت الحاضر.

استدار اندريا بسرعة إليها ينظر بعينين مليئتين بحيرة صامتة:

ـ أنت لا ترغبين في العمل للسنيور غانتيوني سنيوريتا؟

ابتسمت صابرينا وهزت رأسها لسوء فهمه.

ـ أوه.. لا.. ليس هكذا أبداً.. لكنني فكرت، في الوقت الحاضر إلى أن أعتاد أكثر على.. على كل شيء، أن أبقى مقيمة حيث أنا وأجيء إلى هنا كل يوم.

تقارب الحاجبان الأسودان معاً في عبوس مركز:

ـ لا أستطيع الإجابة عن هذا سنيوريتا، لكن إذا رغبت سأتحدث بالأمر مع السنيور غانتيوني.

ابتسمت شاكرة عرضه، وقالت:

ـ سأكون ممتنة إن ذكرت هذا له.. فأنا في الواقع سعيدة جداً حيث أنا.

قبل أن يسجّل عقلها أن اندريا ماريولي نفسه سبب وجيه آخر لأن لا تقيم هنا، هز رأسه بأدب:

ـ جيد جداً سنيوريتا.

فتح لها الباب مشيراً إلى باب آخر عبر الرواق مباشرة ثم دقّه بخفة.. ودون انتظار فتحه وأشار لصابرينا أن تتقدمه.

كانت الشمس شديدة الإشراق كما كانت في المكتبة لكن كان هناك مظلة مخططة تظلل بعض الشيء، وتمتد فوق شرفة صغيرة

خلف باب زجاجي.. في الخارج رأت طونيو، الصبي الصغير، يجلس مكوّراً فوق مقعد منحنياً إلى الوراء فوق كومة من الوسائد، وبدا لها وحيداً ضجراً.

رفع نظره عند فتح الباب ثم جاء بعد لحظة راكضاً. وجهه النحيل مستغرب لكنه كان يبتسم.. عيناه الكبيرتان السوداوان تنتقلان منها إلى اندريا.

أحنى رأسه أدباً.

ـ سنيوريتا، أهلا بك في ڤيلا غانتيوني.

ابتسمت صابرينا له وقلبها متأثر بهذا الوجه المثير للشفقة وبالترحيب الوقور الناضج.. مهما كان الذي قاله عمه، فهي لا تزال مؤمنة أن إحساسه بالتعاسة هو سبب مظهره الحزين.. ووجدت من الصعب أن تصدق أن ماريو يمكن أن يبدو يوماً منكسر القلب هكذا.

قالت:

ـ مرحباً طونيو.. ألم يقل لك عمك إنني قادمة لأعتني بك؟

ـ آه.. سي.. سي.. اتشيتو..

أمسك بيدها يجرها إلى داخل الغرفة ثم إلى الخارج حيث كان يجلس.

ـ سنيوريتا رويس.. ديسيدرو انداري..

وضعت صابرينا إصبعاً لطيفاً فوق فمه، وقالت:

ـ يجب أن تتكلم الإنكليزية طونيو.. أنا لا أعرف الإيطالية.

اهتز الرأس الأسود الشعر مجدداً بأدب وقور:

ـ أنا آسف سنيوريتا.

استدارت صابرينا لترى السكرتير لا يزال واقفاً داخل الغرفة يراقبهما، فابتسمت.

ـ شكراً لك سنيور ماريولي.. لن تنسى أن تذكر تلك المسألة للسنيور غانتيوني.. هل ستفعل؟

ـ سارتامان سنيوريتا!

ابتسمت ثانية، ثم ذكّرت نفسها فوراً أنها لا شك تشجعه كثيراً حين شاهدت اللمعان في عينيه.

ـ شكراً لك.

ابتسم بدوره وأحنى رأسه:

ـ غراتزي سنيوريتا.

قدم طونيو مقعده لها بأناقة متباهية.. وقبلت الجلوس بهزة رأس بسيطة، وهي تنظر إلى الحديقة في الأسفل.

كانت الحديقة متدرّجة لتتناسب مع الصخور الشديدة الانحدار.. لكنها كانت مزدهرة جداً بالتراب الأسود الخصب. وكان هناك أشجار ظليلة حول بركة لها مقاعد حجرية بيضاء تحيط بها، والماء يعكس خيالاته البراقة على سطح هذه الغرفة كما في المكتبة.

كانت أزهار «الجيرانيوم» والورود تتكوم بغزارة في كل مكان، تملأ الدرجات وحافات البركة.. الصنوبر القاتم، يبدو أسود تقريباً أمام الشمس المشرقة، والألوان البراقة حوله. كان هناك كذلك تماثيل بيضاء نحيلة مستديرة لآلهة إغريقية محنية الرأس خجلاً، نصف مختبئة وراء الميموزا الصفراء الزهر.

كل هذا كان يقف متشامخاً فوق المتوسط وكأنه الجنة العائمة.. وفكرت صابرينا أنها لم تشاهد يوماً أي شيء في مثل هذا الجمال في حياتها.. المكان بارد وجميل ومغرٍ في يوم حار كهذا.

شد طونيو ذراعها يذكرها بوجوده:

ـ سنيوريتا رويس!

التفتت إليه مبتسمة.. فسأل:

ـ هل ستبقين؟

وضعت صابرينا حقيبتها إلى جانب المقعد، ولفّت ذراعها حول الصبي النحيل تشده إليها:

ـ هذا ما أرجوه طونيو.. إذا اتفقنا معاً.

ـ وسنمرح معاً.. لا؟

ـ هذا ما أرجوه أيضاً، لكن يجب أن نعمل كذلك.

مال يستند إليها ينظر إليها بعينيه السوداوين الواسعتين.. ثم ابتسم وقال بنعومة:

ـ سنذهب للإبحار.. سي سنيوريتا؟ لدى صديقي مركب صيد وقد قال لي إنه سيأخذني لنبحر فيه يوماً.

بدا من المؤسف تخييب ظنه بسرعة، لكنها كانت تشك في أن يوافق ريكاردو غانتيوني على إبحار ابن أخيه في واحد من قوارب الصيادين.. وبدا واضحاً كذلك أنه يتوقع منها أن تسليه أكثر من أن تعلمه.. هكذا قالت بغموض:

ـ ربما.. لكن في الوقت الحاضر هناك أشياء أخرى نفكر فيها.. أتعرف العدّ طونيو؟

ثبت أن هذه كانت أولى العراقيل.. كان هناك دليل على الحرد في شفته السفلى الممتلئة.. وبدأت تكتشف، أكان صبياً صغيراً أم لا، أن لديه الكثير من الأمور المشتركة مع عمه المتسلط ويكره أن لا تجري الأمور على هواه..

سألها:

ـ لماذا يجب أن أتعلم العدّ؟

ابتسمت:

ـ لأن كل شخص يجب أن يتعلمه.. أنت تريد أن تكبر وتصبح قادراً على إدارة الأعمال مثل عمك، أليس كذلك؟

هز طونيو كتفيه والتمرد في عينيه، وقال بإصرار:

ـ أفضل الإبحار.

ـ أنا واثقة من أنك ستذهب.. لكن لدينا عمل نقوم به طونيو.

ـ وإذا لم أرغب في العمل؟

كان في صوته ترقب وتحدٍ ذكَّرها مرة أخرى بعمه. في هذا الصبي الضعيف الصغير الكثير من الإرادة الصلبة التي تعني أنه يشبه أباه، وتنهدت صابرينا لما تصورته بانتظارها.. ثم قالت له بهدوء:

ـ إذا فعلت هذا فلسوف يبعدني عمك.

فكر طونيو بهذا لحظات.. ثم وافق بحزن:

ـ سي.. مولتوبيني.. سأعمل.

لم يكن لديها وقت للتعبير عن امتنانها للقرار قبل أن ينفتح الباب، وانطلق طونيو كلمح البصر عبر الغرفة.

ـ زيو ريكو.. زيو ريكو!

ورمى نفسه بين ذراعي عمه.. وقفت صابرينا منزعجة من أن تجد نفسها تحس بتوتر سخيف، وتساءلت لماذا يجب أن يكون لريكاردو غانتيوني هذا التأثير عليها.

لم يكن يرتدي ثياب الركوب هذا الصباح بل كان يرتدي بذلة رمادية خفيفة وقميصاً أبيض أبرز لونه البرونزي الداكن.. لكن تلك الجاذبية التي لا تقاوم والتي اختبرتها بالأمس عادت تصدمها مرة أخرى وكأنها ضربة جسدية ما إن دخل الغرفة.

ـ كالموبيكولو..

تلاعبت يده الكبيرة بشعر الصبي، ثم التفت إليها يقول بنعومة:

ـ آنسة رويس.

وقف أمامها وقفة جعلته يبدو أقوى. البنطلون الضيق كان يزيد من إبراز خصره النحيل، وعضلات ساقيه القوية، والسترة مفتوحة لتظهر القميص الحريري الأبيض الرائع، الذي يُظهر سمرة جسده عبر القماش الحريري الرقيق الشفاف.

لم يحاول إخفاء تقييمه لها، للفستان الأخضر الشاحب دون أكمام، وللحذاء الأبيض الخفيف، ومرة أخرى أحست بانخفاض الياقة ورفعت يدها في حركة دفاعية تقريباً..

نظر إليها بثبات إلى أن أصبح قلبها يضرب بين ضلوعها بشدة، وهي تنتظر ما سيقول.. أخيراً قال:

ـ سمعت أنك تريدين تعديل اتفاقنا.

هزت رأسها منكرة:

ـ لا.. ليس بالضبط.. في الواقع نحن لم نبحث أي ترتيبات بالنسبة لإقامتي سنيور.. على الأقل لم يقل لي أحد شيئاً عن هذا.

ـ ألا تعجبك غرفتك هنا؟

ـ لم أشاهد غرفتي بعد.. سنيور غانتيوني.

الطريقة التي انضم فيها الحاجبان السوداوان معاً كانت نذير شر لأندريا ماريولي كما توقعت، وتساءلت ما إذا كانت غير منصفة له.. فقال:

ـ إذن أنت لم تأتي بحقائبك.. سأرسل شخصاً يفعل هذا سنيوريتا.

ـ لكن.. ظننت أنه يمكنني الاستمرار في الإقامة في ڤيلا بيلا لفترة.

ـ ربما تخافين على سمعتك؟

السؤال كان بصوت ناعم منخفض حدّه كالفولاذ، حتى أنها لم تعد تشك أبداً في رأيه بها أو ما هي نتيجة طلبها.

قالت:

ـ لا.

وكانت ستقول المزيد لو سنحت لها الفرصة لأنه قال:

ـ لا داعي للقلق.. هناك سيدتان أخريتان في المنزل إضافة للخدم.

ـ أعرف.. لكن..

قاطعها مرة أخرى:

ـ إذا لم يكن الجانب الأخلاقي هو الذي يزعجك.. فلماذا تريدين تغيير الترتيبات؟ أنت معتادة على الإقامة في منزل رب عملك.. ألست هكذا؟

ـ أجل.. أجل.. بالطبع.

انزعجت لأنها وجدت نفسها مذعنة هكذا لا تريد أن تصر على رأيها.

ـ لم أقصد أن أجعل من هذا الأمر مسألة هامة سنيور غانتيوني.. لكنني فقط فكرت..

ـ مهما فكرت به آنسة رويس فهو بعيد عن أي سؤال..

دفع يده في جيب بنطلونه باسترخاء، بدا مع ذلك واثقاً تماماً من أنه مسيطر على الموقف.

ـ لقد وظفتك لتعتني بطونيو طوال الوقت.. ليلاً نهاراً.

ـ أوه.. لكن بالتأكيد هناك بعض الوقت لنفسي!

رد بهدوء:

ـ طبعاً.. ما إن يخلد طونيو إلى فراشه للنوم، لن يعود هناك

حاجة لخدماتك وتستطيعين فعل ما تريدين.. لكن لن تبقي طويلاً خارج القيلا ليلاً، مهما كان السبب، هل هذا واضح تماماً؟

جعل من أسباب بقائها خارج القيلا ليلاً تبدو بعيدة عن البراءة، ونظرت إليه متحدية من تحت رموش طويلة:

ـ لا يعجبني ما تلمّح إليه سنيور.. لا نية لدي في أن أعيش هنا وأبقى كل الليل في الخارج.. وأنا أرفض أي إشارة إلى أنني قد أفعل هذا.

تفرست العينان الثلجيتان الزرقاوان بها ببرود للحظات، ووجدت نفسها تركز نظرها على ذلك الوجه الصارم والشق العميق في ذقنه المربعة.. وجدت ريكاردو غانتيوني فاتناً إلى درجة أزعجتها بشدة.. وقال لها:

ـ لقد افترضت أنك ستقضين وقتاً طويلاً مع ابن خالي في الوقت الذي لا تكونين فيه مع طونيو.. لا شك عندي في قوة ملاحقته آنسة رويس، لذلك فأنا مصرّ على انتقالك إلى هنا، وأن تعودي إلى هنا في وقت معقول ليلاً.

ـ حيث تستطيع أن تراقبني عن كثب!

كان الرد الغاضب لا إرادياً.. لكنها كانت تحارب مشاعر مختلطة وتكاد لا تعرف ما تفكر به. كانت غاضبة لأنها تعترض بشدة على معاملتها هكذا ولأنها كذلك تعرف أنها ستذعن لمطالبه عاجلاً أم آجلاً.

رفع حاجبه تحدياً:

ـ بالضبط!

كراهيتها ظهرت واضحة في عينيها وهي تواجهه، يداها ترتجفان بحيث ضمتهما بشدة إلى جانبيها:

ـ أنا أكره أن يُملي عليّ أحد طريقة حياتي.. سنيور

غانتيوني.. أفهم أن زمن الجواري ولّى.. لكن نظراً لتصرفاتك يبدو أنك لا زلت تعيش في العصور الوسطى، تمنح لنفسك حق السيادة على موظفيك!

أحست برجفة ذعر مفاجئة وهو يقف يعلوها كالبرج.. نظرة التوحش التي لمحتها في أول لقاء لهما في عينيه لم تكن شيئاً مقارنة بالتعابير الظاهرة بشراسة على قسمات وجهه، أو في عينيه الفولاذيتين الزرقاوين.

ـ سوف تعتذرين.. سنيوريتا!

كان صوته كذلك بارداً كالثلج، مع ذلك لم يرفعه عن وتيرته الطبيعية، وتعجبت لمدى سيطرته على نفسه.. كانت سترفض بغضب لكن شيئاً في هذا الرجل ملأها بمشاعر لم تختبرها من قبل حتى أنها لم تعد واثقة من قوة إرادتها، وبقيت صامتة..

اشتد ضغط فمه إلى أن أصبح خطاً مستقيماً:

ـ حسن جداً، آنسة رويس! هذا خيارك أنت!

للحظة مذعورة ظنته سيضربها، ثم اختار طونيو أن يتدخل.. وبدا وجهه الصغير النحيل محتاراً وأكثر حزناً مما كان، وهو ينظر إلى عمه ويشدّ كُم سترته.

ـ زيو ريكو.. تشي سي؟

لكن نظر ريكاردو لم يفارق صابرينا أبداً، وقال للصبي بهدوء:

ـ ستيا كالمو، طونيو.

لكن طونيو لم يكن على استعداد للبقاء هادئاً.. فقد كان مستغرباً إضافة إلى شيء من الارتباك.. ويريد معرفة ما الذي يجري. شد كمّ السترة مجدداً ورفع صوته:

ـ زيو.. تشي كازا أي سوتشيو؟

لانت قسمات الرجل المشدودة لحظات ونظر إليه:

ـ نينتي افاتو، بيكولو.. ستيا كالمو، بيرفاڤور.

نظر طونيو إلى صابرينا مقطباً. على الأرجح لم يرَ أي شخص يتحدى عمه الرهيب من قبل، وكان يعرف جيداً من منهما سيتراجع، وحاول تحذيرها وإنهاء المشكلة فناداها:

ـ سنيوريتا؟

مع ذلك ترددت صابرينا.. لم تكن راغبة في أن ترحل وتعترف بالهزيمة بسرعة.. مع ذلك لم تكن واثقة أنها على استعداد أن تتذلل.. ويجب أن تفعل شيئاً.. فريكاردو غانتيوني لا يزال يحدق بها، وأحست بالقشعريرة تغزو جسمها.

ردد ريكاردو كلمة طونيو، السؤال:

ـ سنيوريتا؟

مما ترك القرار لها. ودون أن تعرف ماذا ستفعل أو تقول تالياً وقفت حيث هي دون حركة، مذهولة لردة فعلها نحوه كرجل.

بدا من المستحيل تقريباً أن تفكر بالتراجع.. لكنها كانت تعرف أنها مضطرة.. فأخذت نفساً عميقاً وقالت مترددة:

ـ أنا.. أنا آسفة.. سنيور غانتيوني.

تنفس بهدوء:

ـ بيني!

وكان بإمكانها أن تقسم بأن لمعان ارتياح ظهر في عينيه.

أما طونيو فقد بدا من الواضح أنه مسرور للنتيجة.. وأحست صابرينا أنها تكاد تنفجر بضحك هستيري للحادثة التي لا تصدق.. فهي ما كانت لتتصرف هكذا بمثل هذا الإذعان في الوقت نفسه من السنة الماضية.. في الواقع كانت ستخرج على الفور ولا تعود أبداً.. فاستقلالها كان دائماً عزيزاً عليها.. مع

ذلك فقد كانت مستعدة هنا أن تبتلع كرامتها كي تبقى موظفة لدى رجل يتصرف وكأنه لديه سلطة حياة أو موت عليها.

للحظة وهو ينحني ليتلاعب بشعر الصبي، لامست يده ذراعها، فأحست بنبضاتها تقفز تجاوباً مع لمسته، فتراجعت فوراً. نظر إليها بثبات وقد أصبح أقرب إليها الآن، وقال بتعبير غريب في عينيه:

ـ أرجو عفوك، سنيوريتا.

لم تقل صابرينا شيئاً.. بل قاومت لتثبت دقات قلبها الخافقة بجنون بين ضلوعها.. هناك أكثر بكثير من عجرفته ستضطر إلى مواجهتها لو بقيت في ڤيلا غانتيوني.. وتساءلت عما إذا كانت قد قضمت قضمة أكبر من قدرتها على الابتلاع.

* * *

٤ ـ تُقاد إلى الذبح

كان من دواعي الارتياح أن تعرف صابرينا أن السيدتين في منزل غانتيوني كانتا غائبتين هذا اليوم، ولن تضطر للقائهما على الأقل لفترة.. كانت سنيورا فورتسكيو والدة ماريو في زيارة لابنتها المتزوجة، بينما مويرا الغامضة لديها موعد مع الخياط في نابولي يحتاج إلى غياب يوم كامل.

كان اندريا ماريولي قد أعلمها أنها ستعيش هنا كجزء من العائلة.. وبما أن طونيو لم يكن معزولاً في جناح خاص به، فلا شيء يمكنها أن تفعله حول مشاركتها لوجبات الطعام معه.. لكنها في تلك اللحظات كانت تفضل صحبة موظفي المنزل.

كانت حقائبها قد وصلت من ڤيلا بيلا خلال الصباح ووُضعت في غرفتها كما وعدها السنيور غانتيوني وافترضت أن من المتوقع منها أن تكون سعيدة، لكن التفكير بأنها ستعيش مع العائلة في منزل يضم ريكاردو غانتيوني كان رهيباً بما يكفي لإخافة أي كان.

انسحبت إلى غرفتها فور أن وضعت طونيو في فراشه أمام خيبة أمل ماريو الشديدة.. فقد كان لديه خطط لهما معاً لقضاء الأمسية في نابولي للرقص.. لكنها أحست أنها بحاجة إلى وقت لتستعيد فيه أنفاسها.. كما أن ماريو لم يكن بالرفيق الهادىء.

لم تجد أي عيب في الغرفة التي أُعطيت لها.. في الواقع

www.elromancia.com

كانت مغتبطة بها.. ومثلها مثل الغرف التي رأتها هنا، كانت فخمة، مضاءة، جميلة وأنثوية.. حتى أنها تساءلت من كان آخر ساكنيها.. السقف المرتفع كان منقوشاً بزخارف كثيرة.. وهذا ما جعلها تشعر مرة أخرى أنها عادت في الزمن مئات الأعوام.. نافذة عريضة مرتفعة، كانت تنفتح فوق الحديقة والبركة. بُسط ناعمة، وسجادة كثيفة، وفراش مغطى بمفارش من الدانتيل، بدت لها غير حقيقية.. واستلقت هناك في الصباح التالي مع برودة الصباح تتساءل كيف حصل كل هذا.

من كان يصدق منذ ثلاثة أسابيع حين تركت آخر عمل لها في «سوراي» أنها ستعيش في وقت قريب في ڤيلا إيطالية وتحصل على أجر سخي؟ كان الأمر لا يزال صعب التصديق.. وأملت أن لا تستفيق فجأة فتجد كل شيء حلماً.

التفكير الذي خيّم على يقظتها ذلك الصباح كان باللقاء مع المرأتين في المنزل.. وكان هاجسها أن تكون أي منهما صورة أنثوية من ريكاردو غانتيوني.. وكشّرت صابرينا إشفاقاً على نفسها وهي تغادر السرير.

أعلن طونيو أنه ليس مستعداً بعد لترك فراشه حين دخلت عليه.. قررت أن لا ضرر من تركه لبعض الوقت لأنه أبلغها أنه لا يأكل شيئاً في الصباح. أما هي فقد كانت مستعدة تماماً لالتهام الخبز بالسكر والقهوة، ونزلت إلى الأسفل تفتش عن الطعام.

كانت المطابخ، كما عرفت، في الطابق الأرضي.. هكذا نزلت فوق السلم الرخامي بعد نظرة سريعة لتتأكد من أن لا أحد حولها.. وقد تتمكن من إرضاء شهيتها، دون الاضطرار للظهور على طاولة الفطور.

لم تكن قد وصلت بعد إلى منتصف السلم حين سمعت

صوت باب يقفل في مكان ما، وناداها شخص من الرواق العلوي:

- آنسة رويس!

استدارت بسرعة تنظر إلى وجه ريكاردو غانتيوني القاتم المتسائل، وابتسمت نصف ابتسامة:

- صباح الخير سنيور غانتيوني!

- هل أنت خارجة؟

هزت رأسها بالنفي غير راغبة في أن تقول له إنها تسعى إلى الطعام في المطبخ، بدل الجلوس على مائدة الفطور معه ومع أهل منزله.

- لا سنيور.. كنت.. كنت..

- نحن نتناول الفطور دائماً على «الترّاس».. ألا تعرفين الطريق إلى هناك؟

لماذا لا يتركها أبداً تنهي جملها؟ ليس هناك جدوى من الكذب عليه كما أنها لا تنوي أن تقول له الحقيقة، هكذا هزت كتفيها.. في لحظة كان إلى جانبها ووضع يده تحت ذراعها، راحة يده دافئة ترسل تلك الارتجافة في أوصالها وهي تسير إلى جانبه..

قال لها:

- سأقدمك إلى السيدتين.. يسرني أنني التقيتك، فماريو لم ينزل بعد كما أعتقد.

- أنا لم أره.

لا شك أن تعابير وجهها فضحت حقيقة شعورها إزاء لقاء السيدتين.. فنظر إليها بتقطيبة استغراب لكنه لم يقل شيئاً للحظات. لكن ما إن وصلا إلى أرضية الردهة الباردة حتى شد أصابعه حول ذراعها ليوقفها معه.. فرفعت نظرة تساؤل إليه لتراه

يبتسم:

ـ ما الذي يصيبك بالاضطراب؟

هزت رأسها بسرعة:

ـ أنا.. فقط.. أشعر وكأنني.. أُقاد إلى الذبح.

اشتدت أصابعه حول ذراعها:

ـ ماذا؟ لن أرمي بك إلى السباع سنيوريتا! نحن لم نعد نرمي عبيدنا إلى الحيوانات المتوحشة لتمزقها إرباً لتتسلّى! فلا تخافي!

كان كلامه إشارة مقصودة إلى اتهامها المتسرع له بالأمس.. ورفعت نظرها إليه والعتب في عينيها الخضراوين، تحاول إيقاف الشدة المخيفة التي يضرب فيها قلبها بين ضلوعها.. من المثير للاضطراب كيف أن لمسة يده تستطيع أن تسبب مثل هذا الدمار لمشاعرها، وفي الوقت نفسه تطمئنها.

قالت وفمها متكوّر قليلاً:

ـ أنا متوترة بما يكفي سنيور غانتيوني.. ولا حاجة لأن تحاول زيادة توتري.

نظر إليها صامتاً ثم قال:

ـ لم يكن في نيتي هذا.. ولن يأكلك أحد.. أعدك!

ـ وهذا ما وعدني به ماريو تجاهك! ولا أستطيع أن أصدق أياً منكما!

ـ يمكنك أن تصدقينا معاً آنسة رويس، لكنني لا أشجع فكرة الحديث عني مع أفراد عائلتي خصوصاً بطريقة تنقص من قدري.

ـ أوه.. لكننا لم نكن..

قاطع كلماتها بوضعه يده تحت ذقنها، يرفع رأسها بحدة، وتحملت نظرة هاتين العينين الزرقاوين.. بإحساس رعب غريب. وقال بنعومة وكأن ما يقوله يزعجه ويحيّره:

ـ أنت دائماً تجادلينني.. ما من أحد يجادلني سنيوريتا.. فلماذا تصرين على هذا؟

ردت بشجاعة أكبر مما تشعر:

ـ لأنني لا أظن أن لأي رجل الحق بالسلطة على الآخرين!

حاولت تخليص ذقنها من قبضته:

ـ وأرجوك.. لا تمسكني هكذا.. أنت تؤلمني!

لامست ابتسامة صغيرة متوترة شفتيه، وتعمّد شد أصابعه قليلاً قبل أن يتركها ويقول بصوت ناعم:

ـ أستطيع أن أؤلمك أكثر من هذا بكثير.. تذكري سنيوريتا.. هه؟

لم ترد صابرينا، لكنها دعكت بلطف آثار أصابعه وعيناها محتارتان قلقتان:

ـ سنيور..

ـ ستحاولين أن تكون لك الكلمة الأخيرة.. أليس كذلك؟

لم يترك لها الوقت لترد، وأمسك ذراعها مجدداً ليكمل الطريق عبر الردهة تحت أنظار تلك المخلوقات المبتسمة من اللوحات المعلّقة على الجدران.

كان الباب المزدوج أمامهما يقود إلى الغرفة الكبيرة التي شاهدتها في الزيارة الأولى.. لكنه لم يدخلها بل توقف ويده على الأكرة المزيّنة بالذهب ينظر إليها بثبات.. شهقت بدهشة ظاهرة حين أجفلتها ضحكة منخفضة عميقة وجعلتها تجمد.

ـ تبدين وكأنك تتوقعين أن يفترسك أحد.. وأؤكد لك أن الأمر ليس هكذا، آنسة رويس.

لفترة بدت لها كالأبد درس وجهها بدقة، وعادت نبضات قلبها مجدداً للضرب بجنون، وكادت تصرخ فزعاً حين مد يده

يلامس وجهها. . وقال بصوت ناعم منخفض:

ـ أعتقد أنني أستطيع مناداتك صابرينا كما يفعل ماريو؟ تعالي! دعينا ندخل.

كانت صابرينا ترتجف وهي تسير عبر الغرفة الكبيرة الجميلة، تغوص في السجاد السميك المحاك بلونين أحمر وذهبي، يتناقضان مع الجدران البيضاء والمدفأة الرخامية الرائعة. . لم تكن في المرة الماضية قد لاحظت عدة لوحات على الجدران قاتمة متجهمة على عكس ما يحيط بها، تنظر إليها بعيون سوداء جريئة تذكرها مجدداً بماريو فورتسكيو أكثر مما تذكرها بالرجل إلى جانبها، مع أنها افترضت أن تلك الوجوه لأسلافه.

قادها ريكاردو نحو باب خارجي عريض ثم إلى باحة مرصوفة، باردة ومظللة من شمس الصباح. . كانت الحديقة تفيض برائحة عطرة منعشة واستطاعت رؤية لمعان البحر في الأسفل البعيد. . أزرق قاتم كما لا يمكن سوى للبحر المتوسط أن يكونه.

حول طاولة بيضاء من الحديد المصنوع كانت تجلس سيدتان وابتلعت صابرينا ريقها بصعوبة.

إحداهما كانت كما خشيت صابرينا أن تكون متجهِّمة الوجه، صارمة، هذا إذا كان بالإمكان الحكم عليها من تعابير وجهها، ترتدي فستاناً كاملاً أسود اللون على الرغم من حرارة الشمس، وإلى هذه الصورة الكئيبة قادها ريكاردو أولاً.

ـ هذه الآنسة رويس عمتي داڤينا. . آنسة رويس هذه عمتي، سنيورا فورتسكيو.

هذه أم ماريو! ما كانت صابرينا ستتمكن من أن تنسب ابناً فاتناً إلى مثل هذه المرأة المتجهمة العدائية، ما عدا أن هناك بعض التشابه الظاهري في مكان ما. كان شعرها الأسود مخططاً بلونٍ

رمادي ومرتداً إلى الوراء عن وجه لا يمكن له مطلقاً أن يدعي الجمال. . مع ذلك يحمل تشابهاً مؤكداً مع جمال ماريو، وفم مشدود الشفتين.

ـ سنيورا.

اليد التي مدتها صابرينا تم تجاهلها عمداً. . وكانت العينين المعاديتين السوداوين تشكان بوضوح أنها شقت طريقها إلى الڤيلا لمجرد أن تكون قرب ماريو. .

استدارت صابرينا عنها بارتياح، فمرافقتها بدت أمراً مختلفاً تماماً. . كانت تبتسم مع يد طويلة نحيلة ممدودة بالتحية ساعة استدارت إليها، ورحبت بها عينان خبيثتان لكن لطيفتين. . كان شعرها أحمر جداً بحيث من المستحيل الافتراض أنه ليس اصطناعياً! لكن وجهها على الرغم من دلائل الكبر في السن كان جميلاً، يخلو من التصنع.

مال ريكاردو فوقها، وذراعه حول كتفيها في إشارة محبة وحنان أدهشتا صابرينا:

ـ مويرا. . ! هذه الآنسة رويس مويرا. . آنسة رويس، هذه الكونتيسة مويرا دوغابريلا.

ـ أوه. . ريكو. . كارا. . هذا ساحر! أهلاً بك في العائلة سنيوريتا رويس. . سمعنا الكثير عنك. . ديو! لقد أحدثت الكثير من. . ايكسبتامنتو. . الإثارة بين شباننا! إيه ريكو!

كانت تستخدم يدين معبِّرتين لتفسير ما تعني واستدارت عيناها وهي تضحك بغبطة. . لم تكن الكونتيسة ترتدي الأسود الممل الكئيب، بل فستان صيف أخضر يكشف ذراعين ممتلئتين. . وابتسمت عيناها البراقتان تشجيعاً لصابرينا:

ـ ستحبين أن تكوني معنا سنيوريتا!

هزت صابرينا رأسها موافقة مأخوذة قليلاً بشخصية المرأة الجريئة المشوّقة التي أعجبتها على الفور، وكانت النقيض الكامل لوالدة ماريو، وقالت:

ـ أرجو هذا كونتيسة.

مال الرأس الأحمر الشعر إلى جانب واحد وتساءلت العينان السوداوان البراقتان:

ـ وسوف تعتنين بالبيكولو الصغير.. سي؟ إنه بامبينو ساحر.. طونيو.. لا؟

وافقت صابرينا بكل إرادتها:

ـ إنه صبي صغير عزيز.. ونحن متفقان تماماً.

مرة أخرى رنت الضحكة غير المكبوتة:

ـ بيني! لسوف يحبك كثيراً..

ونظرت إلى جارتها المتجهمة بغمزة خبيثة:

ـ مثل عمه.. سي؟

نسيت تماماً أن طونيو ينادي ماريو عمه كذلك والتفتت صابرينا إلى ريكاردو بعينين متسعتين مذهولتين.. ولدهشتها وخيبة أملها رأت العينين الزرقاوين الباردتين دافئتين بالضحك.. وقال يذكّرها:

ـ ماريو هو عمه أيضاً.

أحست بالدم الدافىء يتصاعد إلى وجنتيها.. لم تشعر يوماً بمثل هذا الغباء في حياتها.. وأحست أن من المحتم أن ترى ريكاردو غانتيوني يضحك على حسابها دوماً..

لم يفت عينا الكونتيسا شيء من الحدث الجانبي، وأخذتا تنتقلان من ريكاردو إلى صابرينا بسرعة ثم لوت وجهها سخرية وقالت:

ـ أوه.. لكنني عنيت ماريو بالطبع! مي سيباس سنيورا!!

آسفة أم لا، فقد كانت متسلية بالغلطة التي تلاعبت فيها على الكلمات.. وتساءلت صابرينا كيف يمكن لها أن تكون غبية هكذا لترتكب غلطة كهذه، وسعت لتشرح:

ـ أوه.. أرجوك لا تظني..

لكنها عرفت أن محاولتها خاطئة لحظة تكلمت:

ـ .. أنا كنت.. أعني أنني..

وُضع أصبع طويل وبثبات على شفتيها، ورفعت عينين مذهولتين لترى ريكاردو يهز رأسه ببطء ووميض الضحك الدافىء لا يزال في عينيه:

ـ كويتو.. پوأوكا!

ابتسمت الكونتيسة بلطف:

ـ أنت لست معتادة علينا بعد سنيوريتا.. سرعان ما ستتقبلين طريقتنا وتنسين كونك..

كتفاها المعـ[illegible]

[illegible] على نقص في معلوماتها الإنكليزية..

وأعجبت صابرينا بالكونتيسة.. مع أنها لم تكن تعرف حتى الآن ما هي بالنسبة للعائلة، أو حتى إذا كانت واحدة منهم أم لا.. ريكاردو لم يعطها لقباً سوى الكونتيسة.. وقررت صابرينا أنها كائناً من تكون ستكون حليفاً ثميناً لها في أيام الشدة.

مرت الأيام التالية وكأنها الحلم بالنسبة لصابرينا مع أن طونيو أبقاها على أطراف أصابع قدميها بهجوم مستمر من الأسئلة عن انكلترا.. وعبّر عن رغبته في الذهاب إليها يوماً.. فلقد زارها عمه ريكاردو وأعجبته كثيراً.

أدهشها كثيراً الأمر الأخير.. فهي لم تستطع تصور أن يروق المزاج الإنكليزي لريكاردو غانتيوني أبداً.. إلا إذا كانت أساءت

الحكم عليه.

كان ماريو قد رتب أمره على أن يأخذها لترى خليج نابولي الشهير، وتنفست الصعداء حين ذهب طونيو دون ضجيج إلى فراشه، ليعطيها المزيد من الوقت لتستحم وتغير ثيابها.. راقبت النتيجة في المرآة الطويلة وابتسمت للإحساس غير الواقعي لصورة غرفة النوم المنعكسة.

أرجعت شعرها الطويل حتى الكتفين عن وجهها وابتسمت لصورتها المنعكسة.. كانت الشمس الإيطالية قد أعطتها حتى الآن لوناً أسمراً ناعماً، ورفضت أن تخفيه بالماكياج تاركة بشرتها تلمع بدفء وبشكلها الطبيعي.

وهي تترك غرفتها فتحت باب طونيو بهدوء لتجده لا يزال يتفرج على كتاب الصور الذي تركته له.. ابتسم لها فأكملت فتح الباب ودخلت إليه تهز رأسها. فسأل:

ـ أنت خارجة مع زيو ماريو؟

كان في نظرات طونيو أحياناً شيء من النضوج يذكرها بماريو.. وردت عليه:

ـ سنذهب فقط في نزهة بالسيارة، وأظن الوقت تأخر كثيراً لتنام أيها الشاب.

لم يعترض حين أخذت الكتاب منه، بل جلس مكوراً في فراشه كجني أسود العينين:

ـ زيو ماريو، هو.. مولتو اموروزو.. سي سنيوريتا؟

ـ طونيو!

كان في صوتها رنة تحذير لكنها قاومت الضحك الذي تصاعد إلى شفتيها، وعرف طونيو هذا فقال بإصرار:

ـ يعجبك زيو ماريو.. سي؟

أرجعت صابرينا الأغطية إلى الوراء وشدته إلى الفراش، تقول له:

ـ نم!

استلقى على الوسائد:

ـ سي سنيوريتا رويس!

حين استدارت عند الباب لتبتسم له، غمز بعينه بخبرة وقال بصوت ناعم وعيناه تتراقصان بخبث من خلف حافة الغطاء:

ـ تشاو!

كانت النزهة رائعة في السيارة على الطريق الساحلية إلى نابولي.. كانت طريق «آمالفي» الرئيسية الجميلة بمناظرها الخاطفة للأنفاس جديرة بنزهة طويلة.. هذا ما وعد ماريو به صابرينا.. لكنهما هذا المساء اضطرا للاكتفاء بجزء من هذه الطريق من «بيلابايا» إلى «نابولي».. وكان لصابرينا وقت أقل لإبداء الإعجاب بها، فقيادة ماريو كانت سريعة بسرعة توقف شعر الرأس.. وكان هناك الكثير لتتفرج عليه حتى أنها حاولت الاقتراح عليه أن يقود السيارة ببطء أكثر.. لكنها ترددت.

أشجار الحامض والبرتقال الرائعة العطر والتفاح والخوخ والإجاص كلها تنمو بوفرة في هذه التربة الغنية.. ولاحظت صابرينا ما بدا لها سقوفاً صغيرة من القش فوق قمم الأشجار، وبسؤالها ماريو عنها ضحك وبدا مسروراً جداً لتزويدها بمعلوماته.

ـ أتسألين عن «الباغلياريلي»؟

ـ أهذا هو اسمها؟ لماذا هي هنا؟

ـ لحماية الفاكهة، وماذا غير هذا؟ حتى هنا نتوقع طقساً سيئاً أحياناً..

تطلعت صابرينا إلى سماء المساء الصافية ووجدت من الصعب أن تتصور الطقس هنا عاصفاً.. وقالت:

ـ أجد صعوبة في تصديق حدوث عاصفة هنا.

ـ آه.. لكن هذا صحيح كارا! وإلا كيف ينمو أي زرع هنا؟ يجب أن نحصل على مطر أحياناً.

أمالت رأسها إلى الوراء على ظهر المقعد وتنهدت برضى، تحس باسترخاء لم تحس به منذ بضعة أيام.

كانت الأراضي الريفية كأنها بستان واحد متسع. التربة السوداء الغنية تنتج موسماً وراء موسم من البرتقال والليمون، وكل أنواع الفاكهة التي يمكن تخيلها تقريباً، إضافة إلى مساحات شاسعة من الطماطم والذرة والبصل والقنبيط المزروع بين الأشجار..

بعد وقت لم يطل بدأت البساتين المثمرة تتراجع أمام أولى المنشآت الصناعية، صناعات ثقيلة، خفيفة، صارمة، بعد جمال الأميال التي مرت. خزانات ضخمة لمصافي البترول، رافعات شامخة في أحواض بناء السفن تشق السماء بدلاً من الأشجار، كانت تعطي شخصية مختلفة عن صورة إيطاليا كما تصورتها. وكان هناك معامل إسمنت خام بغبارها الأبيض ينتشر فوق كل مكان.

هذه هي الصورة الأكثر قسوة من البلاد التي تعطي ريكاردو غانتيوني وآخرون مثله ثراءهم الوفير، لكنها لا تروق كثيراً لصابرينا.. لكن كان من المهم أن تكتشف وجود صناعة مثل هذه في مكان ما كانت لتحلم بوجودها فيه.

ما إن اختفت المباني الصناعية خلفهما حتى انحدرت بهما الطريق إلى نابولي.. المنظر من قمة التل كان يقطع الأنفاس،

وكل زاوية منه رائعة بقدر ما توقعتها.

بدا الخليج الشهير ضخماً بلون أزرق قاتم لامع تحت أشعة شمس المغيب، مع مدرج فوق مدرج من البيوت الصغيرة، والعديد من المباني المتعددة الطبقات، معظمها بألوان بيضاء متدرجة، وجبل «ڤيزوف» يطل مهيباً من الخلف. وأخذ قلب صابرينا يضرب بسرعة أكبر بينما كان ماريو يهبط بالسيارة نحوها، والهواء البارد النقي يتصاعد من البحر.

تنفست:

ـ إنها.. رائعة!

التفت إليها:

ـ إذن.. أعجبتك نابولي.. صحيح؟

ـ تبدو مذهلة!

ـ هل نتابع النزول إليها؟ نستطيع الذهاب إلى مربع ليلي لنرقص قليلاً.. وربما قليل من.. الرومانسية.. سي؟

تذكرت تحذير ريكاردو غانتيوني لها حول العودة في ساعة مقبولة، وكيف أن ماريو على الأرجح سينجح في إقناعها بالعكس:

ـ لا أظن هذا ماريو.

مال ماريو نحوها يلامس خدها:

ـ لماذا أنت خائفة هكذا من المجيء معي بيلاسيما؟

ابتسمت على الرغم من خفقان قلبها:

ـ لست خائفة.

ـ إذن أنت خائفة من ريكاردو؟

تحدتها عيناه أن تنكر، فأخفضت نظرها بسرعة.

ـ لست خائفة بالضبط.. لكنني مضطرة إلى المحافظة على

عملي ماريو.

ـ انسي أمر ريكاردو.. تعالي للرقص معي كاريسيما.. هه؟

كأن الأمر لا مهرب منه، تنهدت صابرينا وهي تلين:

ـ حسن ماريو، سآتي معك لنرقص.

ـ بيني!

في المدينة نفسها، كانت الحياة والصخب في الشوارع المكتظة تكاد تكون مزعجة. لكن صابرينا انجرفت مع المد المرح البهيج الذي تلا دخولهما الشوارع الضيقة للواجهة البحرية.

هذه نابولي القديمة التي تراها صابرينا الآن، أثرية بأبنيتها المزخرفة، والعمدان المرتفعة فوق الشوارع الضيقة إلى السماء الزرقاء الصافية.. بعض هذه الأبنية أصبح الآن بالياً مع تقدم الزمن والبعض يبلى ببطء لكنها لا زالت مؤثرة جميلة.

حتى القصور المرتفعة والتي كانت تضم الأثرياء والمتنفذين من عصور أخرى تأوي الآن عائلات كاملة في غرفها الواسعة في الطوابق السفلى.. عائلات تعيش بعضها قرب بعض، يتنادى أفرادها بحبور في جدال ودي.

أخذها ماريو إلى الجزء الأكثر حداثة في المدينة، حيث المنازل والمحال عصرية وأقل فخامة.. وأخبرها بأن هذه هي نابولي الحديثة، وتبادر إلى ذهنها أنها قد تكون الآن في أي مدينة أخرى في العالم.. لكن لم تتح لها الفرصة أن تفقد اهتمامها بما حولها، فقد استدار بالسيارة إلى موقف وساعدها على النزول من السيارة.

كان المربع الليلي مبهرجاً وصاخباً، ولم تكن صابرينا سعيدة بوجودها هناك، لكن كان يبدو أن ماريو معروف جيداً هناك، وكان سعيداً تماماً بهذا..

كانا منطلقين في رحلة العودة حين أدركت تماماً كم أن الوقت متأخر.. وعضت شفتها حين فكرت بريكاردو غانتيوني.. وقالت:

ـ الساعة تقارب الثانية ماريو.

هز كتفيه:

ـ وإن يكن.. هل الأمر مهم كارا؟

ـ أجل.. لدي أوامر أن أعود في ساعة مقبولة، وأنا واثقة أن السنيور غانتيوني لن يعتبر الثانية صباحاً ساعة مقبولة.

ضحك:

ـ أوامر؟ ديو! بإمكان ريكاردو أن يكون.. متسلطاً!

ـ لاحظت هذا وقلته له مرة وكدت أفقد عملي.

نظر إليها بسرعة، عيناه مضيئتان تقريباً في نور القمر الساطع، ثم هز كتفيه:

ـ سي؟ السبب أمه الروسية طبعاً.. أنا لا أذكر العمة فيلتشيا جيداً فقد سافرت وتركت ريكاردو وهو لا يزال صبياً صغيراً.. لكنها كانت روسية جداً! متجهمة عنيدة.. كومبريندي؟

هزت رأسها تفهماً:

ـ أوه.. فهمت.. إنه نصف روسي! كنت أتساءل.. فهناك لا شك شيء تنسب إليه تلك العينين الزرقاوين وبنية العظام الرائعة.

تساءلت ما إذا كانت قد أسرفت قليلاً في إبداء الرأي، ما قاله ماريو أثبت هذا وبشيء من الحسد:

ـ وهذا ما تجده السيدات لا يقاوم.

بطريقة ما لم تكن تفكر بأن يكون ريكاردو زير نساء على الرغم من جاذبيته التي لا تصدق.. وسألت:

ـ حقاً؟

هز كتفيه استسلاماً:

ـ إنه لا يلاحظ هذا.. أو أنه يتظاهر!

وكادت صابرينا تضحك عالياً:

ـ حسن جداً ماريو.. لا أظنك قادراً على الشكوى في هذا المضمار!

ـ لا.. فللعائلة نصيبها من الوسامة.. أمي من عائلة غانتيوني بالطبع.. هي ووالد ريكاردو شقيقان.

ـ أوه.. هكذا إذن.. أنتما لستما متشابهين، أنت وريكاردو؟

هز كتفيه معترفاً:

ـ لا.. لا.. لا أعتقد هذا.. ريكاردو لا يفكر بشيء سوى بالعمل، وبخيوله بالطبع.. إنه مجنون بها حتى أنه يساعد في تدريبها حين يكون لديه الوقت.

هذا إذن يفسر غموضاً آخر حول ريكاردو غانتيوني، ولماذا كان يرتدي ثياب الركوب يوم قابلته لأول مرة.. إنها تعرف المزيد عن مخدومها هذه الليلة.. وبدا لها أن هناك العديد من الوقائع والوجوه تحيط بتلك الشخصية المعقدة.. ومعظمها يثير الفضول.

* * *

٥ ـ من يملك صابرينا؟

كانت الساعة تقارب الثانية والربع حين دخلا القيلا. وشعرت صابرينا بالذنب مع أنه أكد لها أن الوقت غير متأخر كثيراً حسب مقاييسه.. وبما أن ريكاردو يعرف أنها معه فهو بالتأكيد لن يتوقع عودتها باكراً.

كان السكون شديداً في الردهة الكبيرة المزخرفة، وأخذت الأرض المبلطة تهمس تحت حذاء صابرينا الخفيف وهي تتقدم إلى الدرج.. كانت الأنوار لا تزال مضاءة، لكنها ظنت أنها تبقى هكذا طوال الليل لذا لم يدهشها الأمر كثيراً.. ما أدهشها في الواقع وجعلها تشهق بصوت مسموع أن تسمع من يناديها وهي تستعد للحاق بماريو صعوداً على الدرج.

ـ سنيوريتا؟

هذه الكلمة الوحيدة، بذلك الصوت الأجش البارد، أوقفتها مسمرة، عيناها متسعتان قلقتان وهي تستدير.. ولم يكن لديها أدنى شك عمن ناداها حتى قبل أن ترى ريكاردو يقف شامخ القامة في باب غرفة الجلوس، ورغبت في أن يبتعد ماريو عن الطريق قبل أن يتورط فيما يفكر به ابن خاله لها. فهمست:

ـ سأراك في الصباح.. ليلة سعيدة ماريو!

ـ لكن.. كارا..

ـ أرجوك ماريو!

أرادت شهامته الغريزية أن يبقى ليدعمها، لكن منظر قسمات ابن خاله المتجهمة جعلته يشك في الحكمة من هذا. . كما أن لهفة صابرينا لإبعاده، جعلته في النهاية يرضخ.

تراجع الطيف الطويل بالبذلة الخفيفة، إلى داخل الغرفة. وتنهدت صابرينا بعمق وهي تتخلى عن مراقبة انسحاب ماريو، وسارت عبر الردهة. . كان يقف أمام المدفأة الضخمة، متجهماً ينذر بالشر، ويداه خلف ظهره. . ذقنه المربع مندفع إلى الأمام بعدائية. . حين دخلت الغرفة نظر إلى ساعته متعمداً. وقال بصوت بارد:

ـ هل الساعة الثانية والربع هي فكرتك المناسبة عن الساعة المعقولة سنيوريتا؟

أحست بقشعريرة تغزو ظهرها، وأحست بالبرد بعد المشوار الطويل، فرفعت يدها لتغطي ذراعها المكشوفة:

ـ لم ألاحظ كم تأخر الوقت. . سنيور غانتيوني.

ـ لا شك أنك في رفقة ابن عمتي فقدت الإحساس بالوقت!

السخرية جاءت ببريق الرفض إلى عينيها الخضراوين، لكنها تمكنت من الإبقاء على صوتها ثابتاً.

ـ لا. . سنيور.

ـ هل تأخرتما إذن بسبب حادث ما؟

ـ لا سنيور غانتيوني. . ببساطة لم ألاحظ مرور الوقت. . وأنا آسفة إذا كنت ظننت أنني كنت. . مهملة. لكنني وضعت طونيو بأمان في فراشه قبل أن أخرج. . وكنت على اعتقاد بأنني فعلت كل ما هو مطلوب مني.

أدانتها العينان الزرقاوان الثلجيتان دون رحمة.

ـ إذن يجب أن أبلغك سنيوريتا أن طونيو ومنذ أقل من ساعة كان يناديك! لقد كان يحلم حلماً سيئاً. . إنه يحلم أحلاماً بشعة منذ مقتل والديه. . وكان حزيناً جداً لعدم وجودك.

ـ أوه. . أنا آسفة جداً!

ـ لو كنت هنا في ساعة معقولة كما أعطيتك التعليمات لتمكنت من التعامل معه.

ـ أنا. .

ـ من حسن الحظ أنني سمعته يناديك وأنا ذاهب إلى غرفتي وإلا لازداد كربه. . فما من أحد غيرك قادر على سماعه حين ينادي.

هذا صحيح. . وتعرفه. . فغرفة طونيو كانت بين غرفتها وغرفة عمه، وهما الوحيدان القريبان بما يكفي لسماع ندائه أو بكائه.

ـ أنا آسفة. . حقاً آسفة سنيور. . لكن. .

ترددت في التلفظ بأي انتقاد في مثل هذا الظرف لكنه لن يستطيع إنكار الحقيقة فيما ستقول.

ـ كان يجب أن تحذرني بأن طونيو يحلم بكوابيس، سنيور غانتيوني.

ـ وهل لهذا أهمية؟

ـ أجل. . بالطبع! الآن وقد عرفت سأتدبر أمر رجوعي دائماً في ساعة مبكرة.

هز رأسه بحدة:

ـ جيد! أنا مسرور أنني أخيراً تمكنت من إقناعك بأهمية واجباتك. . وأنك هنا للعناية بطونيو وليس لتسلية ماريو حتى ساعة متأخرة من الليل!

أحست بقلبها يخفق بجنون والغضب والإحباط يتصارعان ليتغلب أحدهما على الآخر.. لماذا يصدق دائماً الأسوأ عنها؟ ضمت يديها بشدة في قبضتين إلى جانبيها وعيناها تلمعان كجوهرتين خضراوين في وجه محمرّ وهي تتحداه.

ـ لا حق لك في أن تقول هذا سيد غانتيوني!

لدهشتها لم يوقفها فوراً عند حدها، بل وقف ينظر إليها متوتراً حذراً، وعِرْق صغير ينبض عند منتصف عنقه بسرعة.. ثم قال بنعومة:

ـ أنت تتحدينني دائماً.. وتتجادلين معي.. ألن تتعلمي سنيوريتا؟

ـ أتظن أنك تملك جسدي وروحي لمجرد أنني أعمل لك؟ سنيور! أنت لا تملكني سنيور غانتيوني! ولا أحد يملكني!

العينان الزرقاوان لم تعودا باردتين، بل قاتمتين ضبابيتين، فيهما مشاعر بدت كذلك في صوته الأجش.

ـ ربما هذا أمر مؤسف!

بدا أن كل عصب في جسمه متوتر.. وأحست شيئاً من الخوف حين تحرك فجأة.. تراجعت إلى الوراء، يدها اليسرى لا زالت تغطي أعلى ذراعها، كأنها تحتضن نفسها وقاية من البرد الذي أحست به في وقت سابق مع أنها تحس الآن بحرارة شديدة.. وقال مبتسماً بقليل من المرح المتوتر:

ـ هل تحكمين علي حسب مقاييس ماريو سنيوريتا؟

هزت رأسها غير واثقة للحظة ماذا ستقول أو تفعل.. وأدركت فجأة إلى ماذا يلمح فهزت رأسها:

ـ أوه.. لا سنيور غانتيوني.. أعرف أنك لا تهتم سوى بمصنعك! ولن أتوقع منك أن تتصرف كما يتصرف ماريو!

لم لكن لديها الوقت الكافي لترى بريق الغضب في عينيه قبل أن يجذبها إليه.. ذراعاه قويتان مشدودتان كالرباط الحديدي، تضمانها قريبة إليه حتى أنها أحست بضربات قلبه الثابتة القوية.. وكان يمكن أن تصرخ ألماً لو استطاعت.

لم يعر مقاومتها الشديدة له اهتماماً، وكأنه يريد أن يؤلمها.. أخيراً توقفت عن المقاومة ليستمر ضغط يديها فقط على صدره.. مستسلمة للمشاعر المشوشة التي تدير الرأس والتي ملأتها خوفاً وابتهاجاً.

حين تركها أخيراً لم تتوقف لتفكر بما تشعر به بل ركضت بأسرع ما تستطيع تخرج من الغرفة، تصعد السلم الرخامي العريض دون توقف.. في هدوء غرفتها وقفت لحظات عدة وظهرها مستند إلى الباب، أنفاسها تتصاعد بصوت مرتفع محموم، تحس بساقيها ضعيفتين بشكل غريب، وترتجف.

لماذا ركضت هاربة؟ سعت للرد وهي تسير إلى السرير المغطى بالدانتيل وتجلس عليه، تخلع حذاءها وترميه على السجادة. لم تهرب من ماريو حين حاول ضمها في السيارة، لكنها كانت تتوقع هذا منه.. وريكاردو غانتيوني مسألة أخرى.

عينا الكونتيسة السوداوان الخبيثتان ابتسمتا لصابرينا عبر طاولة العشاء، وقالت:

ـ هل تجدين من السهولة أن تعيشي معنا سنيوريتا رويس؟

استجابت صابرينا بالطريقة التي تستجيب فيها دائماً للكونتيسة.

ـ إنني أتعلم كونتيسة.. بعد ثلاثة أسابيع أظنني بدأت أنسجم مع الروتين.

ـ بيني! جيد!

نظرت الكونتيسة إلى ريكاردو وحاجبها الرفيع مرتفع قليلاً:

ـ كان اختيارك رائعاً لطونيو، كاراميو، سنيوريتا رويس ليست.. كيف نقولها سنيوريتا؟ فأرة ريفية ساذجة، هه؟

ابتسمت صابرينا:

ـ هناك مثل هذا التعبير كونتيسة، لكن إطلاقه على كل الفتيات الإنكليزيات فكرة خاطئة.

قالت الكونتيسة موافقة:

ـ طبعاً.. لكن كان لدي صديقة لي فتاة إنكليزية تعتني بطفلها، البامبينو.. وكانت.. أووه ديو! كانت فعلاً كالفأرة.. تلك الفتاة!

زادت اليدان المعبرتان المزيد من المعنى للكلمات.. لكن عينا السنيورا فورتسكيو كانتا تعبران عن عدم الموافقة حتى قبل أن تتكلم.. واستطاعت صابرينا أن تعرف أنها على خلاف في الرأي مع الكونتيسة، وهذا ما بدا وكأنه يسعد الكونتيسة بدلاً من أن يزعجها.

قالت السنيورا بإنكليزيتها المتكلفة:

ـ إذا كنت تشيرين إلى المربية عند أسرة كولاني فقد كانت شخصية ممتازة، مويرا، ولم تسع إلى الاستفادة الشخصية كما تفعل العديد من مواطناتها في مثل هذا المركز.

لم تكن هذه المرة الأولى التي كانت فيها صابرينا هدفاً لتلميحات السنيورا اللاذعة هي تعرف أنها لن تكون الأخيرة، لكنها لمحت نظرة ماريو وابتسمت للتكشيرة التي كان يوجهها إلى أمه دون أن تراه.. على أي حال لم تكن الكونتيسة مستعدة لأن تدع المسألة تمر دون تعليق، وعلقت بشيء بالإيطالية لم تفهمه صابرينا، لكنه تعليق تسبب بلون أحمر داكن على وجه السنيورا

فورتسكيو.

للحظات تحولت ضغينة السنيورا إلى الكونتيسة واستغلت صابرينا الوقت لتفكر بالسبب الذي يدفع المرأتين إلى متابعة العيش في المنزل نفسه وهما تكرهان الواحدة الأخرى بشكل ظاهر.. في حالة السنيورا، وباعتراف ابنها، كانا سيكونان فقراء جداً دون عون ريكاردو.. لكن من الصعب فهم سبب بقاء الكونتيسة.

بعد ثلاثة أسابيع في الڤيلا لم تستطع صابرينا أن تكتشف مكانة الكونتيسة في شجرة العائلة.. ولا يمكن أن تطرح السؤال مهما تعاظم فضولها.. لقد أحبت الكونتيسة وزاد إعجابها بها الآن بعدما عرفتها أكثر.. وكان لديها إحساس غريب أن من الإحراج بحث وضعها في المنزل لتحديده بدقة.

وفيما هي مستغرقة في أفكارها كانت تعي أن هناك نقاشاً حاداً يجري بالإيطالية.. كلمة حادة لا يمكن أن تخطىء في فهمها أعادتها إلى ما حولها، تلفظت بها السنيورا ووجهها قاتم الاحمرار، وعيناها السوداوان تنظران نظرة شريرة إلى الكونتيسة التي مدت يدها عبر الطاولة تلامس ذراع ريكاردو مهدئة:

ـ لا.. ريكو كارا.. بيرفاڤور.. لي أي مولتو جنتي.. ما..

ارتفعت الكتفان الرقيقان لصرف النظر عن الإهانة مع أن الواضح أن ريكاردو كان أقل استعداداً للتسامح بها.. وكان حاجباه ملتصقين معاً وهو ينظر إلى عمته بعناد:

ـ زيا داڤينا!

صابرينا تعرف هذا الصوت البارد العنيد جيداً.. ووجدت قلبها على استعداد أن يشفق على السنيورا فورتسكيو فريكاردو في مثل هذا المزاج الغاضب يمكنه أن يردع أياً كان حتى السنيورا كما

بدا، فبعد لحظات من نظرات سوداء حادة، أخفضت عينيها بسرعة:

ـ مي سبياس موبرا.

كان الاعتذار على مضض، وبطريقة بعيدة عن الكياسة، لكنه قيل. وكانت الكونتيسة هي البادئة في استعادة سيطرتها على غضبها، فابتسمت لصابرينا تحاول الاعتذار:

ـ كنا سيئين جداً في التكلم بالإيطالية سنيورينا رويس. أرجوك سامحينا.. لكن.. ربما كان هذا أفضل.. هه؟

ضحكتها أدفأت الجو قليلاً ثم تابعت:

ـ إذا كان للمرء أن يتلقى إهانة فمن الأفضل أن تكون بلغته.. سي؟

إنها فعلاً امرأة مميزة.. وانضمت إلى الكونتيسة بكل إرادتها حين وقفت تعلن رغبتها في التمشي في الحديقة. ألقت نظرة سريعة على الصبي لتجده يلعب بسعادة مع عمه ولحقت بالكونتيسة إلى الحديقة.

كان الهواء بارداً منعشاً يهب من البحر ورائحة الليمون الأحمر تمتزج مع رائحة الورود لتصبح رائحة حلوة مسكرة.. وهما تسيران تحت الأشجار استدارت الكونتيسة تنظر إلى صابرينا، ورأسها الأحمر الشعر مرتد إلى جهة واحدة.

ـ أنت لا تتكلمين الإيطالية أبداً سنيورينا رويس؟

هزت صابرينا رأسها:

ـ لا كونتيسة.. وأتمنى لو أتعلمها لكن لا وقت لدي.

استدارت عيناها الخبيثتان إلى الأعلى:

ـ آه.. سي.. ماريو مشغول بتعليمك أشياء أخرى. هه؟ يجب أن تطلبي من ريكاردو كارامبا.. فأنا واثقة أنه سيكون

مسروراً بأن يعلمك لغتنا.

ضحكت صابرينا:

ـ وأنا واثقة أنه لن يكون مسروراً!

نظرت الكونتيسة إليها بخبث وسألت:

ـ أنت لا تعتقدين أن لدى ريكاردو الوقت لمثل هذا؟

ترددت صابرينا لحظة قبل أن ترد:

ـ أنا أشك في أن يعتقد بأن تعليمي الإيطالية يستحق المشقة، كونتيسة.. سنيور غانتيوني لا يستحسن وجودي معظم الأوقات.

ـ آه.. لكن، بقية الأوقات، بيكولا!

وضعت الكونتيسة في عينيها معان كثيرة.. وأحست صابرينا بتصاعد اللون الدافىء إلى وجنتيها مما بدا أنه أثار بهجة الكونتيسة التي ابتسمت ابتسامة عريضة.. وقالت صابرينا بحزم:

ـ أنا أعمل للسنيور غانتيوني. هذا كل شيء كونتيسة!

لكن تشددها في التأكيد أقنع الكونتيسة بأن هناك شيئاً أكثر من هذا.. فهزت رأسها:

ـ أنت امرأة شابة جميلة جداً سنيورينا.. صابرينا سي؟ وأنت تسيئين الحكم على ريكو إذا كنت تظنين أنه رجل أعمى!

ـ لكن.. كونتيسة..

ـ آه.. لا.. لا! أنا على حق وسترين... هل يعجبك ماريو؟

كان السؤال أكثر من مجرد فضول عادي، ونظرت صابرينا إليها مفكرة ثم هزت رأسها:

ـ يعجبني كثيراً كونتيسة، لكن لا شيء جدي.. فمع ماريو من الحماقة الظن بشيء جدي!

امتدت يد نحيلة طويلة على ذراعها، واهتز الرأس الأحمر

بالموافقة.

ـ أنا مسرورة أنك تفهمين هذا كارا.. دائما لن تسمح بهذا أبداً.. حين يتزوج ماريو يجب أن يتزوج من معها مال كثير.

كان من المحرج لصابرينا أن تتلقى مثل هذه الأسرار، لكنها افترضت أن العائلة تأخذ مثل هذه الأمور بسهولة.. فقد اعترف ماريو أنه وأمه فقيران جداً أو سيكونان هكذا دون مساعدة ريكاردو.. ومن المنطق المقبول له أن يتزوج فتاة ثرية حين يجد من ترضى بإغماض عينيها عن ماضيه.

قالت تسأل:

ـ أعتقد أن الزيجات لا تزال تدبر هنا أحياناً؟

ضحكت الكونتيسة وكانت ضحكتها الأكثر مرارة مما سمعته صابرينا في حياتها.

ـ آه.. سي.. سي.. بيكولاميّا! من الأسهل أن تُعقد مما أن تُفك!

تذكرت صابرينا أن الطلاق ليس سهلاً في إيطاليا كما في بلدان العالم الأخرى.. وتابعنا السير بصمت لفترة، ثم ابتسمت الكونتيسة مجدداً ويدها تمتد لملامسة ذراع صابرينا.

ـ لقد أحببتك صابرينا، كارامّيا، أنت.. كيف يقال؟ تسمعين جيداً؟

ـ مستمعة جيدة.

ـ سي.. مستمعة جيدة.. أنت تتساءلين من أكون.. أليس كذلك صابرينا؟

ـ أوه.. لا.. أنا..

اهتز الرأس الأحمر بشدة:

ـ بلى كارا.. أعرف.. أنت لا تعرفين إذا كنت عمة أو خالة؟

أو ماذا أكون بالنسبة لريكو.. لا؟ أتعرفين أن أمه تركته وهو طفل صغير؟

ـ أجل، أخبرني ماريو.

ابتسمت بلطف:

ـ لكن لا تعرفين أكثر من هذا؟ هه؟ إنه أطيب قلباً من أمه بكثير.. كانت غلطتي أن تركت السنيورة غانتيوني ولديها.. أنا الملامة، لكن جزئياً، تفهمين هذا..

نظرت إليها صابرينا بقلق:

ـ كنت الملامة؟ لكن..

ـ كانت.. امرأة لا تضحك أبداً.. تفهمين؟ وأنا كنت..

كتفاها المعبّرتان، أوضحتا أكثر من الكلمات، وأكملت:

ـ... كنت السبب.. لكن من يلوم رجلاً يسعى إلى الضحك والوجه المرح السعيد؟ رحلت واحتاج الولدان إلى أم.. وكنت أحبهما جداً وأحباني.. ما بانبيني!.. لا! الآن لا يوجد سوى ريكاردو!

لكن العينين السوداوين لم تظهرا سوى الأسى على ربيبها، دونما ندم.. وأكملت:

ـ كما تعرفين جيداً كارا، الزواج لا ينفصم في إيطاليا، والسنيورا لا تزال حية.

ـ طبعاً أفهم.. وأنا آسفة.

ـ أوه.. سي بيكولا ميّا.. أنت كذلك لك قلب رقيق أكثر من ماريو، لكن لا يجب أن تشعري بالإشفاق عليّ، بيمبا، كان لدي أوقات سعيدة جداً مع ستيفانو وولداي! إذا حصل المرء على الحب.. هناك أشياء كثيرة يمكنه أن يواجهها.

تلك الضحكة المشرقة الحادة بددت سكون الحديقة

لحظات.. وأكملت:

ـ حتى سخرية داڤينا! مسكينة طونيا لم تكن قادرة على هذا.

ـ طونيا؟

ـ أم صغيرنا طونيو، كارا. كانت جميلة جداً.. وريكاردو كان سيتزوجها.

فكرت صابرينا بانزعاج.. إذن طونيو ليس من أسرة غانتيوني.. مسكين طونيو.. انه محروم من المركز الاجتماعي مثله مثل الكونتيسة.. مع ذلك فهو آمن تحت سقف ريكاردو غانتوني مثلها تماماً. بدا وكأن كل روح في المنزل تدين لريكاردو غانتيوني بالحب والعرفان بالجميل.. لكن نصفهم فقط يعطونه هذا الحب.

قالت تحاول التخفيف من جو الحزن الذي خيّم عليهما:

ـ طونيو طفل محبوب جداً.

ابتسمت الكونتيسة:

ـ إنه.. بوكو فاليتو.. سي؟ وهو طفل محظوظ ريكاردو قد يتبناه يوماً كابن له ليصبح حاملاً لاسم غانتيوني.

ـ أوه.. لكن هذا..

ـ سنيوريتا رويس!

الصوت البارد المألوف قاطع كلماتها فاستدارت.. جعلها إحساس خفيف بالذنب تحمر خجلاً وهي تنظر إلى عيني ريكاردو:

ـ نعم، سنيور غانتيوني؟

تقدم نحوهما:

ـ طونيو في انتظارك.

كان يرتدي قميصاً أزرقاً يكاد يماثل لون عينيه الثلجيتين،

مفتوح الياقة، تظهر فتحته الواسعة عنقاً قوياً أسمر، وذلك النبض الناعم في وسطه.. كالعادة وهو يقترب منها أحست بأصابعها تتكور إلى داخل راحتيها، وأحست بعيني الكونتيسة تراقبانها بمكر.. فقالت بسرعة:

ـ سأذهب إليه.

واستدارت من حوله كي لا تمر بقربه.. لكن مع سرعة تحركها لم تكن أسرع من أن تسمع الكونتيسة توبخ ربيبها:

ـ أوه.. ريكو، كارا ميّو!

ولم تجد صعوبة في تصور ذلك الرأس الأحمر يهتز مؤنّباً.

استلقت صابرينا في الفراش تشعر بالحرارة الشديدة ولا تستطيع أن تنام، تفكر بالأمسية الرائعة التي قضتها مع ماريو، وتشكر السماء أنها تمكنت من إقناعه بالعودة بها في ساعة مقبولة بالرغم من كراهيته للفكرة.

كانت قد خرجت مع ماريو كثيراً منذ تلك الليلة قبل أربعة أسابيع حين عادا إلى الڤيلا في الثانية صباحاً لتجد ريكاردو بانتظارها.. وكانت في كل مرة تتأخر أكثر من إرادتها، وفي كل مرة كانت تدعو الله أن لا يساور طونيو حلم مزعج آخر كي لا يجدها ريكاردو مقصّرة في واجباتها كمربية.

كانت تتمتع بالخروج والمرح مع ماريو، أولاً لكونه يجيد إرضاء غرورها، وثانياً لأنه رفيق رائع ويجعلها تضحك كثيراً. كذلك لأسباب مجهولة لم تستطع تفسيرها تماماً.. كانت تحب أن ترى ذلك العبوس الخفيف الذي يظهر على قسمات وجه ريكاردو حين يتحدث ماريو عن نزهاتهما معاً.. وأحست أن لا ريكاردو ولا السنيورا فورتسكيو، موافقان على خروجهما معاً.

رفعت رأسها عن الوسادة فجأة حين ظنت أنها سمعت صرخة

www.elromancia.com

خفيفة من غرفة طونيو.. لقد كان نائماً بسلام حين أطلت عليه قبل أن تخلد إلى السرير، لكن من الممكن أن يستيقظ ويجب أن تذهب إليه لو أنه ناداها.

مرة واحدة فقط خلال الأربعة أسابيع الماضية انتابه كابوس آخر، ولحسن الحظ كانت قد عادت من السهرة ولم يسمعه سواها.. صيحة أخرى أثبتت ريبتها، وفي لمح البصر كانت خارج فراشها ترتدي ثوب النوم، تشد القماش الحريري الزهري الناعم حول كتفيها وتربط الحزام وهي تتحرك.

صيحة أخرى، هذه المرة أكثر ارتفاعاً وإلحاحاً، وفتحت باب غرفة الصبي تنير المصباح وهي تدخل.

ـ طونيو!

جلس في فراشه، جسده نحيل يثير الإشفاق، دموعه تتدحرج على خديه، عيناه الواسعتان مفتوحتان بخوف كاد أن ينساه، ويسعى إلى المواساة.

فتح ذراعيه لها وهي تقترب لتجلس على حافة سريره تحتضنه إلى صدرها، تهزه بلطف ويدها على رأسه:

ـ لا بأس عليك طونيو.. لا بأس.. كل شيء على ما يرام.. لا تبكي بيكولو.. هس كاراميّا!

الكلمات الإيطالية خرجت منها دون وعي وهي تواسيه، وتعلق بها بشدة، يداه متلهفتان ساختتان، وجسده يرتجف بالنحيب.. إلى أن هدأ بالتدريج.

ـ طونيو؟

كانت قد تركت الباب مواربا حين دخلت، وأجفلت حين سمعت الصوت من ورائها.. نظرت إليه وعلى الفور أحست بقلبها يتسارع وهي تتلقى نظرته المتلهفة.

سأل:

ـ ما الأمر؟

هزت رأسها ووجهها على شعر طونيو الأسود:

ـ لقد مر به حلم سيء.. كل شيء على ما يرام الآن سنيور غانتيوني.

ـ لقد سمعته يصرخ.

لكنها فكرت أنه أراد التأكد من أنها لبت نداء الصبي وأكملت هز طونيو بلطف بين ذراعيها:

ـ لقد كان خائفاً.

لم تجرؤ على النظر إليه حين تقدم ليقف قربهما بطريقة توحي برغبته في حمايتهما.. واهتزت كتفاه العريضتان، وكأنه يتمنى أن يحمل هو ما يزعج طونيو:

ـ يحس المرء أن...

وأحست صابرينا بأسى مفاجيء حنون للرجل والصبي معاً.. وقاطعته بنعومة:

ـ سيكون على ما يرام الآن.. وأنا آسفة لأنه أقلقك.. سنيور غانتيوني.

ـ وكيف يستطيع المرء أن لا يقلق؟

همست:

ـ وأنا لن أستطيع.. لكنني ظننتك نائماً.

ضمت الجسد الصغير إلى صدرها، محاولة أن لا ترى كيف أن عيني الرجل الزرقاوان تستوعبان شعرها المشعث وروبها الناعم فوق غلالة النوم.. وسأل:

ـ ألم تكوني نائمة أيضاً؟

هزت رأسها:

www.elromancia.com

ـ الحرارة شديدة ولم أعتد عليها بعد.. كما أنني أقفلت النوافذ لظني أن هذا سيعطيني البرودة أكثر.. والآن لا أستطيع فتحها مجدداً.

ـ نحن لا نغلق النوافذ في مثل هذا الوقت من السنة.

ابتسمت في نفسها للمحة الانتقاد في صوته حتى في لحظة مثل هذه..

ـ ربما ما كان يجب أن ألمسها.. لكنني أحسست بشيء من البرد في وقت مبكر.

نظر إلى ابن أخيه منحنياً ينظر إلى الوجه الصغير على صدرها، اقترب وجهه أكثر منها حتى أنها أحست بنبضاتها تستجيب كما تفعل دائماً:

ـ هل نام؟

ـ أظن هذا.

حركت طونيو ببطء إلى الوراء، على ذراعها لتنظر إلى وجهه الصغير، بعينيه المغمضتين وبقايا الدموع لا زالت على خديه. مسحتها بلطف بأطراف أصابعها قبل أن تلقيه على الوسائد.

ـ سرعان ما يمرّ هذا إذا كان هناك من يطمئنه.

ـ هو يثق بك.

شدت الغطاء بحذر فوق الصبي النائم وببطء، لتتجنب أن تستقيم في وقفتها وتجد نفسها قريبة من ريكاردو غانتيوني. كانت نبضاتها تضرب مثقلة في صدرها وعلى صدغيها.. وأحست بذلك الشعور المتوتر بالإثارة الذي يحركه دائماً فيها.

دفعتها غريزتها لتنحني فوق الصبي النائم لتقبل وجهه قبل أن تتركه.. لكنها استقامت بسرعة حين أحست يد على ذراعها وهي تستدير عن السرير.

سار خلفها تماماً إلى الباب وأطفأ النور، ليصبحا في مواجهة نور الجدار الخفيف في الرواق.

ـ تصبح على خير سنيور.

استدارت لتذهب إلى غرفتها لكنه كان لا يزال إلى جانبها حين وصلت بابها، فرفعت إليه عينين متسعتين، فقال لها بصوت منخفض:

ـ يجب أن تفتحي نافذتك إذا أردت أن تنامي.

ولم تصدق أنه يعرض عليها خدماته..

ـ أوه.. الأمر.. لا يهم حقاً. أستطيع فتحها لو وقفت على كرسي أو شيء ما.. إنها عالقة من الأعلى فقط.

ـ لن أسمح لك بأن تؤذي نفسك.. سأفتح النافذة لك.. ولا حاجة للخوف من كسر الساق، ولا كسر الكرسي.

العينان الزرقاوان الثلجيتان تدفعانها إلى أن تفكر بأسباب أخرى سوى المساعدة.. فهزت رأسها، تضم روبها تحت ذقنها، وقالت باستسلام وهي تفتح الباب:

ـ شكراً لك سنيور.

دخل الغرفة وكأنه معتاد على دخولها مما يعزز ملكيته لكل شيء فيها.. وراقبته صابرينا وهو يمد يده إلى القسم الأعلى المستعصي من النافذة بسهولة ودون مساعدة كرسي أو أي شيء آخر. وضرب النافذة بقوة بيديه، ثم دفعها إلى الخارج لتنفتح إلى أقصى مداها، وليتدفق الهواء البارد من جهة الحديقة.

في الوقت القصير الذي استغرقه لهذا كانت تتفرس به، تلاحظ الطريقة التي يشتد فيها روبه الحريري حول جسده الطويل اللين القوي العضلات.. وسأل:

ـ هل يكفيك هذا؟

استدار إليها فجأة حتى أنها اضطرت إلى هز رأسها بشدة، وانفرجت شفتاها دهشة:

ـ أوه.. أوه..! أجل! شكراً لك سنيور!

ـ بيني! الآن يمكنك أن تنامي.

ـ شكراً جزيلاً لك.

تفرست بها العينان الزرقاوان لحظة وهو لا زال يقف قرب النافذة.. وبإمكانها أن تقسم أنها لمحت ضحكة في عمقهما.. وقال بنعومة:

ـ هذه ثالث مرة تشكريني فيها سنيوريتا.. والخدمة في الواقع أصغر بكثير من أن تثير مثل هذا الإسراف!

ـ أنا.. آسفة.

لم تجرؤ على النظر إليه بثبات وضمت يديها معاً بقوة أمامها حين سمعته يسير عبر الغرفة.. توقف أمامها وأصبحت قادرة على أن تشعر بتزايد دقات قلبها، وتعي بخوف الطريقة التي ينظر فيها إليها.

كان شعرها الأحمر البني مشعثاً من الوسائد.. وبشرتها المسمرّة قليلاً بعلوها اللون الزهري.. وقفت لا تعرف ماذا تفعل أو تقول، لكن يزداد إحساسها بوجوده وبتأثيره المتصاعد فيها.

ـ هل كنت ستقلقين كثيراً لو كان ماريو معك هنا؟

نظرت إليه مؤنبة متسعة العينين، وقالت بحزم:

ـ ماريو لن يدخل غرفتي أبداً.

ـ لكنه سيفعل لو سمحت له.

شكت أنه يحاول الإيقاع بها لتعترف بشيء ما:

ـ أنا لا أنوي أبداً أن أسمح له.. سنيور غانتيوني!

ـ بالطبع لا.

رفعت نظرها إليه بارتياب وعيناها الخضراوان تلمعان. لم يكن لديها سبب يدعوها للظن بأنه يسخر.. لكن أحاسيسها كانت متوترة لالتقاط أي إشارة أية كلمة يقولها، واختارت أن تقرأ السخرية في صوته أكان يعنيها أم لا.

ـ على الأقل ماريو لن يدخل غرفتي دون دعوة سنيور! وأنت ما كنت لتدخلها لولا أنك أصريت.. أنا لم أدعك!

للحظة ساورتها فكرة مجنونة بأنه قد يضربها. أسباب دخوله الغرفة كانت بريئة تماماً وكانت واثقة من هذا.. وبنية مساعدتها فقط.. وبتلميحها لعكس هذا جعلته يغضب.. وهذا آخر شيء تريده.

أحنى رأسه باختصار:

ـ حسن جداً آنسة رويس!

وتمكن من جعل انسحابه وقوراً ومتعجرفاً، على الرغم من ملابسه غير التقليدية.

ـ أرجو أن تسامحيني لتعريضك للشبهات.. تصبحين على خير.

ـ أوه!

راقبته ينسحب حتى الباب، ولسبب مجهول لها ركضت خلفه تضع يدها على ذراعه، وقلبها يتراقص بجنون.

ـ أرجوك سنيور غانتيوني.. أنا.. لم أقصد.. أعني أنني ممتنة لك لفتح النافذة لي.. لكنني...

لم يقل شيئاً للحظات طويلة، وكانت صابرينا ترتجف كورقة شجر وهو يقف هناك ينظر إليها، وتلك الإثارة التي لا تقاوم تتعاظم لتغمرها. ثم، ودونما كلمة، مد يديه ليجذبها بين ذراعيه..

لم تحاول أن تتخلص منه لبضعة لحظات.. بل استسلمت للمشاعر التي تسري في أوصالها.. ثم فجأة أحست بصوت خفيف من الرواق في الخارج.. وأدركت بذعر أن هناك شخصاً آخر هناك وأن باب غرفتها مفتوح على مصراعيه.

سمع ريكاردو كذلك الصوت.. وفي لحظة خاطفة تركها، وتقدَّم إلى الباب ينظر في الرواق المعتم.. لكنه لم يرَ أحداً.. فعاد لينظر إليها، عيناه الزرقاوان معتمتان رهيبتان حتى أنها ارتجفت وأخفضت عينيها بسرعة.

قال وهو يحني رأسه مرة أخرى قبل أن ينصرف:

ـ أقدم اعتذاري آنسة روبس.. تصبحين على خير!

وقفت صابرينا مسمرة في مكانها لعدة لحظات.. تضع يديها على صدرها ودماغها يخلو من أي رغبة في النوم، يدور في دوامة مشوشة.. وهذه المرة لم تناده ليعود.

* * *

٦ ـ ثم توقف العالم...

كان ماريو أول من ذكر طيش ريكاردو بعد العشاء في اليوم التالي.. كان ماريو وريكاردو نادراً ما يتناولان الغداء في المنزل بل يتناولانه في المصنع، وهي فكرة لا يتحمس لها ماريو كثيراً، لكنه أكثر حكمة من أن يقول شيئاً على مسمع ابن خاله.

فوجئت صابرينا وقت الغداء، بأن السنيورة فورتسكيو أنيقة سمحة الوجه. هذا التغيير أزعجها مع أنها لا تعرف السبب. ولاحظت الكونتيسة ذلك التغيير، ومن المؤكد أنها ستسأل عن السبب في أول فرصة تسنح لها.. من السخافة أن تقلق صابرينا طبعاً.. لكن مع زيارة ريكاردو إلى غرفتها كانت تحس بالذنب والحساسية أكثر من العادة.

بعد العشاء طلب منها ماريو أن تنضم إليه في الحديقة.. بعد أن أوصلت طونيو إلى سريره، خرجت تفتش عن ماريو.. كانت أمسية برّاقة في الحديقة، والبحر من تحتها صافٍ شديد الزرقة وهادىء.

ظلال المساء المتطاولة أعطت الحديقة أجواء باردة ناعمة ساحرة.. واقترحت صابرينا أن يجلسا قرب البركة فوق أحد المقاعد الحديدية المزخرفة المدهونة بالأبيض.

قال ماريو:

www.elromancia.com

- تبدين جميلة جداً، كارامبا!

كانت تعرف أن الفستان الأزرق الشاحب الذي ترتديه يناسبها تماماً، فرفعت يدها إلى شعرها الأحمر البني وابتسمت. أمسك بيدها ينظر إليها وهو يرفع أصابعها واحداً واحداً.

قالت:

- من السهل أن يشعر الإنسان أنه جميل هنا.

لكنها لم تشرح له ما تعني.

لم ينظر إليها ولا ابتسم، فقطبت جبينها لرأسه المنحني عجباً.. وتذكرت حبور السنيورا فورتسكيو الماكر، فبدأ إحساس محفوف بالارتياب يتصاعد بسبب ما ظهر من السنيورا وبسبب صمت ماريو.

أخيراً قال بصوت منخفض:

- لا بد أنك تبدين جميلة جداً و.. مثيرة.. في «روبك» الزهري، كاريسما.

تأكدت ريبة صابرينا لكنها لم تقل شيئاً.. فأكمل:

- آه.. كارامبا.. لماذا ريكاردو؟ لماذا ليس أنا؟

التقت عيناها بعينيه لحظات، لا تريد أن تصدق ماذا يدور في خلده.. وهزت رأسها بشدة:

- أنت لا تصدق أنني دعوته.. أنت مخطىء ماريو.. مخطىء تماماً!

- حقاً؟

- ريكاردو.. سنيور غانتيوني دخل غرفتي ليفتح لي النافذة فقط، كنت قد أقفلتها في وقت سابق وعَلِقت.. لم أستطع أن أحركها.

- كان يمكن أن أفعل أنا هذا كارا.

هزت رأسها:

- لا.. أنت لا تفهم.. ماريو، أنا..

قبّل أصابعها بخفة وعيناه حزينتان:

- لماذا لم تطلبي مني ذلك كاريسيما؟

أخذت نفساً عميقاً مصمِّمة أن تصحِّح الأمور:

- ماريو.. أيمكن أن تستمع إلي؟ أرجوك؟ ريكاردو جاء ليفتح لي النافذة ببساطة.. ولا شيء إطلاقاً يستدعي الضجة حول الأمر.

قبّل أصابعها مجدداً، يهز رأسه ببطء:

- صابرينا! بيلاسيما! في الواحدة صباحاً؟ لكن، لا داعي لأن تشرحي لي كارا.. أنا لا أطلب منك عذراً.. لست بحاجة لأن تعتذري.. لكن أن تستدعي ريكاردو إلى غرفتك بدلاً مني..

وضع يده على قلبه وتنهد:

- هذا ما يؤلمني.. كاريسيما!

- ماريو! أيمكن أن تتوقف عن هذا؟ أنت مخطىء.. أقول لك إنك مخطىء تماماً! والآن أرجوك توقف عن هذه الاتهامات!

أرادت أن تقنعه.. لصالح ريكاردو بقدر ما هو لصالحها.. لكن ما من دليل يمكن أن يقنعه.. كان واضحاً في وجهه الجميل انه قد اتخذ قراره، وعلى الأرجح بتشجيع من أمه، أنها دعت ريكاردو إلى غرفتها ليلة أمس لشيء أكثر جدية بكثير من مجرد فتح نافذة.

أمسك بيدها معاً:

- أعرف أنك تجدين ريكاردو جذاباً.. والسبب مظهره البارد المتشدد القاسي، سي؟ قلت لك إن السيدات يجدنه جذاباً.. ألم

أفعل؟ لكنه ليس لك، بيلاسيما.. إنه رجل لا يصلح لامرأة.. لن يسعدك كما سأسعدك.. لم أصدق حين قالت ماما إنها شاهدته يترك غرفتك هذا الصباح! مع ذلك أعرف أنها لا تكذب عليّ ولا حتى لمجرد إبعادي عنك، كاراميّا!

فكرت صابرينا بمرارة.. هذا بالضبط ما كانت السنيورة تأمل في تحقيقه.. كانت تأمل أن تؤلب ماريو ضدها كي يوجه اهتمامه إلى فتاة سواها تكون مناسبة أكثر له.. لكن ماريو لم يعبّر سوى عن خيبة الأمل ويسعى الآن إلى إقناعها لتدعوه إلى غرفتها بدلاً من ابن خاله.. قالت بإصرار:

- السنيورة فورتسكيو أخطأت الحكم على ما شاهدته، كائناً ما كان.. طونيو أصيب بكابوس فذهبت إليه.. صراخه أزعج ريكاردو فجاء لرؤيته.. ثم ذكرت أنني أشعر بالحرارة لأن نافذة غرفتي عالقة فدخل ليفتحها لي.. والأمر بهذه البساطة!

- وكان يعانقك تحية المساء؟

عضت شفتها بقسوة، واضح أن أمه لم يفتها شيء.

اعترفت على كره منها:

- لقد.. عانقني.. ولست أدري لماذا بالضبط.. لكنه فاجأني و.. حسناً.. لقد عانقني.. وهذا كل شيء!

- لا تدرين لماذا؟ إنه رجل بيلاسيما وينوي أن تكوني له! وهذا لا يعني أنه كل شيء كاراميّا!

- ماريو!

- حسناً.. لن يحصل عليك.. فأنت لي!

- توقف عن هذا!

جذبت يديها منه ونظرت إليه بعينين غاضبتين برّاقتين، أنفاسها قصيرة متوترة، وهي تفتش عن كلمات تقنعه بها:

- أنا لست لك.. ماريو!

- سي..! لقد خسرتك بسبب ريكاردو.

- لا.. لم تخسرني.

أكمل وكأنه لم يسمع ما قالت:

- لم أكن لأظن أن ريكاردو سيكون له عشيقة.. ولقد اختارك من بين كل النساء! ديو ميّا! ليس في هذه الدنيا عدالة!

شدت قبضتيها ووقفت، عيناها تلمحان إلى سخطها:

- ماريو؟ هل يمكن أن تتوقف عن هذا الكلام؟ لست أنوي أن أكون.. ولا حق لك أن تقترح هذا!

قال وعيناه حزينتان نادمتان:

- لكن، كارا، لن يتزوجك.. إنه آخر سلالة غانتيوني.. ولن يفعل.

- أووه..!

غضبها وإحباطها منعاها من التفكير بالكلمات، واستدارت بسرعة تركض نحو المنزل تتركه يحدق بها دون أن يفهم شيئاً.

ارتبكت وكأنها مذنبة لرؤية السنيورة فورتسكيو وحدها في غرفة الجلوس الكبيرة.. وتوقفت عن جريها السريع.. تتنفس بسرعة، خداها محمران من الغضب والإرهاق.. للحظات وقفت بالباب الزجاجي تنظر إلى المرأة المتجهمة الوجه، تلاحظ بريق الرضى في عينيها السوداوين.

واضح أن لديها استنتاجاتها الخاصة عن ركض صابرينا هرباً من الحديقة ومن صحبة ابنها.. وكانت مكتفية راضية. لكن صابرينا لم تكن على استعداد لتركها تحصل على ما تريد دون محاولة وضع الأمور في نصابها.. لقد سيء الظن بها، مُزقت سمعتها على يد هذه المرأة.. ويجب أن تعرف كم هي مخطئة.

كان قلبها يخفق متوتراً.. وتساءلت كيف ستكون ردة فعل ريكاردو على وضع واحد من أفراد عائلته في مكانه الصحيح.. حتى ولو كان الأمر دفاعاً عنه بقدر ما هو دفاع عن نفسها.

ـ سنيورة فورتسكيو.. لقد ارتكبت غلطة ليلة أمس.. أعني هذا الصباح، بتفسيرك الخاطىء لرؤية السنيور غانتيوني.. أعني..

قاطعتها بإنكليزية مكتملة:

ـ لقد شاهدت السنيور غانتيوني بأم عيني سنيوريتا يغادر غرفتك في الساعة الواحدة من هذا الصباح.

كان صوتها بارداً، هادئاً، حقوداً..

ـ وأخبرت ماريو بهذا؟

ـ طبعاً! شرفي يلزمني بأن أقول لابني إن المرأة التي كان يسليها، تستقبل رب عملها في غرفتها!

التمعت عينا صابرينا الخضراوان غضباً:

ـ لا! هذا غير صحيح سنيورة، ولا حق لك بأن تقوليه!

جر الجسد الطويل الهزيل نفسه ليقف متشامخاً، وبتعجرف قالت:

ـ لقد رأيت بنفسي.. سنيوريتا! ولن تدعوني خادمة بالكاذبة.

ـ لكنك مخطئة!

لوحت يدها تصرف احتجاجاتها بازدراء:

ـ لا يهمني لو اتخذ ابن أخي دزينة عشيقات.. لكنني لن أسمح لابني أن يتورط مع امرأة مثلك.. إنه الآن يراك كما أنت حقاً.. وأنا واثقة من أنه سيتخلص من حماقته ويسعى إلى من تناسب مستواه في الحياة!

يا لها من عجرفة.. ودار رأسها بغضب وارتباك.. يا لهذه العجرفة من امرأة، ابنها بنفسه يعترف أنهما يعيشان على كرم ابن أخيها الذي تكنّ له كل هذا الازدراء.. أمر لا يصدق.. للحظات لم تقل شيئاً.. بل وقفت ويداها مضمومتان بشدة إلى جانبيها، وعيناها الخضراوان تلمعان غضباً.

أخيراً قالت بصوت بدا هادئاً بشكل مدهش:

ـ بإمكانك تصديق ما شئت سنيورة.. لكنك مخطئة. ولو أنك تكلمت مع السنيور غانتيوني بالأمر فسيقول لك هذا.

ارتفع حاجب أسود، وتكورت الشفتان المشدودتان:

ـ أتظنين أنني قد أكون دون لباقة إلى هذا الحد سنيوريتا؟ أنت مخطئة!

لا فائدة.. هذا ما أدركته صابرينا وهي تنظر إلى القسمات القاسية وإلى اللمعان الشرير في العينين السوداوين.. ليس هناك أي كلام قد يقنع السنيورة فورتسكيو أكثر من كلام ابنها.. بعد لحظة هزت رأسها واستدارت مبتعدة، تسير عبر الغرفة، وظهرها مشدود تصلباً وسخطاً.. ورأسها مرفوع عالياً.

لكن الباب الزجاجي المزدوج انفتح قبل أن تصل إليه. ودخلت الكونتيسة مبتسمة لرؤيتها.. لاحظت الخدين المشتعلين والعينين الغاضبتين.. فمدت يدها إليها، عيناها السوداوان تنتقلان بسرعة من صابرينا إلى السنيورة، وإلى الأولى مجدداً:

ـ صابرينا.. كارا! كارا! ماذا حدث؟

كان من الصعب جداً أمام تودد الكونتيسة وعطفها أن تبقى هادئة.. وأحست باختناق في حلقها وهي تهز رأسها:

ـ أوه.. لا شيء حقاً كونتيسة.. لا بأس.

ضغطت اليدان اللطيفتان على يديها تعاطفاً:

ـ بيكولا! لماذا أنت مضطربة هكذا وكأنك على وشك البكاء؟ أخبريني ما الذي يزعجك؟

من النظرة التي أرسلتها عبر الغرفة إلى السنيورة فورتسكيو، بدا واضحاً أنها تعرف أين تقع الملامة فيما حدث، كائناً ما يكون.. وأحست صابرينا بإغراء كبير كي تخبرها بالاستنتاجات التي رسمتها والدة ماريو حول زيارة ريكاردو إلى غرفتها، ولكنها كانت خائفة أن تنفجر بالبكاء لو خاضت بتفاصيل كثيرة الآن.. هكذا هزت رأسها ورفعت إلى فمها شبح ابتسامة.

ـ يبدو أمام الرأي العام، كونتيسة، أنني عشيقة ريكاردو!

واستدارت هاربة من الغرفة.

قررت صابرينا أن بالإمكان التخلي عن وجبة الصباح. هكذا في الصباح التالي لم تنزل كالمعتاد بل أمضت الوقت مع طونيو في غرفته ثم ذهبا معاً إلى غرفة الدرس المؤقتة.. وبهذه الطريقة استطاعت أن تتجنب الجميع ما عدا طونيو.

على أي حال وقبل الغداء بقليل انفتح باب غرفة الدرس، فاستدارت صابرينا بدهشة.. إذ ليس من المعتاد أن يزورهما أحد هنا، فريكاردو أعطى تعليمات مشددة أن لا يزعجهما أحد، ولن يفكر أحد بتحدي أوامره، ما عدا ربما الكونتيسة، التي فعلت هذا في مناسبتين.

لكن القادم لم يكن الكونتيسة بل ريكاردو نفسه. وخفق قلب صابرينا بغير ارتياح حين رأت النظرة القاتمة الكئيبة على قسماته المثيرة للغموض.. حتى طونيو أحس أن الوقت غير مناسب لمنح عمه الترحيب الحماسي المعتاد.

ـ آنسة رويس.. هل لك أن تأتي إلى المكتبة، أرجوك؟

لم يتفوه بتحية حتى بدا أنه لم يلاحظ طونيو وهذا غير

عادي.. هزت صابرينا رأسها تنظر إلى ساعتها وهي تقفل الكتاب ببطء وتضعه على الطاولة.. قلبها يضرب ضلوعها بشدة.

إذن حانت اللحظة.. فكرت بذلك وهي مقطوعة الأنفاس.. هذه هي اللحظة التي سيقول لها فيها إنه لن يستطيع بعد الآن أن يبقيها في منزله. في لحظة سيتخلص منها في أسرع وقت ممكن ليثبت لعمته كم هي مخطئة.. ولا شك أن الكونتيسة هي التي أخبرته، لكن دون نية أن تراها مصروفة من العمل.

ابتسمت لطونيو وأعطته كتاباً آخر يقلب صفحاته المصورة خلال غيابها، وقالت له:

ـ لا أتوقع أن أطيل الغياب.

وتساءلت لأول مرة كيف سيتحمل طونيو رحيلها.. لقد أصبح متعلقاً جداً بها مؤخراً.

لحقت ريكاردو في الرواق الذي يفصل بين الغرفتين، وبداها مكوَّرتان بشدة إلى الداخل.. وقلبها كثقل الرصاص، مع إحساس غثيان خفيف. واضح أنه أمضى وقتاً طويلاً في المكتبة وكان دون سترته، فالغرفة الكبيرة كانت دافئة.. قميصه الأزرق الشاحب كان مفتوح الياقة، تظهر فتحته عنقه البرونزي اللون. وأحست بقلبها يقفز بجنون حين لامس ذراعها ليشير إلى كرسي ورائها.

جلس على حافة الطاولة، قدمه تتأرجح ببطء، يده تمسك المعصم المقابل وترتاح على الركبة، العينان الزرقاوان تتفرسان بها بثبات.. بينما جلست هي ورأسها مطأطأ إلى الأسفل تنظر إلى يديها في حجرها.

لم يقل شيئاً لعدة لحظات تهز الأعصاب.. وأخذ سيجارة وأشعلها فتصاعد الدخان يغطي الخطوط المنحوتة لعظام خديه المرتفعين والفم المستقيم المشدود.

أخيراً قال:

ـ يجب أن أهنئك على الطريقة التي تعاملت فيها مع طونيو حين انتابته.. تلك الأحلام السيئة.

لم يكن هذا ما توقعته منه، فنظرت إليه بقلق تتساءل عما إذا كان يحضّر في رأسه الكلمات التي سيكتبها لها في توصيته لمخدومها القادم.

قالت بنعومة تحس اندفاعاً فجائياً للبكاء لا تكاد تقاومه:

ـ الأمر فقط يتطلب قليلاً.. من اللطف لمواساة طفل فزع سنيور.

لوح بيده يؤكد معنى كلامه:

ـ لكن أنت تملكين هذا النوع من اللطف.. ولا يملك أي كان مثل هذه الموهبة في مواساة طفل.

ـ شكراً لك.

أوحى لها تأخيره للحظة الحاسمة بأعذب المشاعر.. كأنهما عدوّان يدوران حول بعضهما يختبران قوة تحمل بعضهما.. وكادت تصيح به.. أرجوك اصرفني من العمل ودعنا ننتهي!

ـ هل فهمت الآن لماذا لا أريد إرساله إلى المدرسة إلى أن يصبح الأمر ضرورياً جداً؟

ـ ربما.

كان من الصعب تخمين ما يجري وراء ذلك القناع البرونزي المحفور فوق وجهه، وهو ينظر إلى أصابع يده قبل أن يتكلم:

ـ ألا توافقين معي؟

ـ لا.. ليس بشكل تام سنيور غانتيوني.

تذكرت أنه لا يحب الانتقاد وارتفع حاجبه الأسود متسائلاً:

ـ ألديك ما تقولينه في هذه المسألة؟

ترددت صابرينا ثم هزت رأسها:

ـ ليس في هذه المرحلة سنيور.

كانت واثقة أنه يتعمد تأخير اللحظة التي سيقول لها فيها ما هو أسوأ.

وقف وأخذ يذرع الغرفة متوتراً.. يقف للحظات قصيرة قرب النافذة ثم يعود ليقف أمامها ينظر إليها.

ـ لكنك لا توافقين على الطريقة التي أتعامل بها مع طونيو.. سي سنيوريتا؟

كان نادراً ما يخلط كلامه معها بكلمات إيطالية كما يفعل ماريو، حتى أنها خمنت أنه أكثر اضطراباً مما يُظهر.. وقالت منكرة بهدوء:

ـ أنا لم أقل هذا.

ـ لكن؟

ـ أنا لا أريد قول المزيد عن آرائي سنيور غانتيوني.. أرجوك لا تسألني.

نظر إليها بثبات على الرغم من توقها لأن تبعد نظرها عنه، يداها وجسمها كله في ارتجاف مجنون لا تستطيع السيطرة عليه، تصاعد فيها إحساس حاد حين اقترب أكثر منها، طويل، شرير تقريباً، ووقف فوقها أقرب من أن تشعر بالارتياح.

قال بصوت خافت:

ـ أنت عنيدة كذلك.

عضت شفتها السفلى بلهفة. ليس من العدل أن يوقع بها كل هذا الاضطراب المدمر وهو يعلم تماماً ما عليه أن يفعل.

ـ أنا آسفة إذا كنت تظن هذا سنيور.

وارتاعت للطريقة التي ارتجف فيها صوتها وتساءلت عما إذا

كان يعلم مدى تأثيره عليها أم لا.

استدار فجأة ليعود إلى النافذة.. كتفاه العريضتان ورأسه المتعجرف يحجبان السماء الزرقاء الصافية.. عندما تحررت من نظرته المثيرة للاضطراب أخذت تتفحصه خلسة.

استدار مجدداً، والتقت عيونهما للحظات، ثم اجتاز الغرفة ووقف ينظر إليها للحظات.

ـ أنا لم أطلب منك المجيء إلى هنا للكلام عن طونيو آنسة رويس.

ـ أعرف.

تساءل بصوت لطيف:

ـ وهل أنا شفاف سهل القراءة؟

ـ لا.. ليس في الواقع.. لكن ليس من الصعب تخمين ما يجول في أفكارك سنيور.

صمت للحظات يتابع النظر إليها بثبات، ثم جلس على حافة المكتبة وقال بهدوء:

ـ بالطبع يمكنك التخمين.. أعتقد أن عمتي كانت..

كتفاه العريضتان أعطتا المعنى لبقية الجملة.. ثم أكمل:

ـ لأجل هذا أنا آسف.. أخشى أن أكون أضررت بسمعتك أكثر مما كنت أدرك.. آنسة رويس.

ـ أوه.. أرجوك لا..

كانت تعرف ماذا سيحدث تالياً.. وأصبح قلبها كرة صغيرة باردة مشدودة في داخلها وهي تنتظر سماع ما سيقول.. الأمر حتمي وتعرف هذا..

ـ لسوء الحظ حادثة وجودي في غرفة امرأة في مثل تلك الساعة من الليل حدث غير مألوف ويكفي كي يثير تعليقات أكثر

مما لو كنت..

ولم يكمل الجملة.. لكن من الواضح أنه كان يشير إلى ماريو.

أحنت رأسها تنظر إلى يديها المتشابكتين في حجرها تحس وكأن العالم كله توقف جامداً فجأة.. شعرها الكثيف الأسمر تدلى إلى الأمام ليغطي وجهها، وبدت صغيرة جداً دون دفاع تجلس هناك على المقعد المزخرف المذهب في الغرفة الكبيرة المشعة.

ـ تود مني أن أرحل.. سنيور غانتيوني.. بالطبع أفهم.

ـ ترحلين؟

رفعت رأسها إليه بسرعة.. شيء ما في صوته أطلق أملاً جديد في قلبها:

ـ أنا.. أنا ظننت...

ورفضت الكلمات أن تخرج، وهزت رأسها ببطء تتساءل ما هو البديل.

ـ لقد دخلت غرفتك بإصرار مني آنسة رويس.. وأشرت لي بنفسك ساعتها أنك لم تدعني للدخول.. لذلك المسؤولية تقع عليّ في أن أتخذ الخطوات المناسبة لتعويضك عن الضرر الذي تسببت به.

وقفت على قدميها.. إذ من الصعب التكلم معه وهي تجلس:

ـ أنا.. لا أفهم.

ـ بما أنك قلت ما قلتيه للكونتيسة فأنت تدركين تماماً أن ماريو وعمتي قررا أنك عشيقتي.. وبما أن عمتي ليست امرأة تبقي مثل هذه الأقاويل لنفسها.. ففي الغد وهي تزور خياطتها ستعرف

نصف نابولي بالأمر.

جعل وضوح كلامه الجريء الأمر يبدو خطأ، وأسوأ بكثير مما كانت تخشى، وأحست بالدم يتدفق في صدغيها بألم.

ـ لكن.. لكن هذا سخيف! أنت تعرف أنه ليس صحيحاً.. وأعرف أنا كذلك.

سألها بنعومة:

ـ وهل حاولت إقناع ماريو؟

هزت رأسها:

ـ لم يصدقني.

ـ بالطبع لا..! ماريو لسوء الحظ يعزو أغلب مساوىء العائلة إليّ.. إنه يتصور أن تفكيري يسير في الاتجاهات الخبيثة مثله.

عادت العينان الزرقاوان إلى البرود.. وتصورت أن صفعة ما نالت من كرامته على يد عمته وابنها.. الاتهام لم يكن صحيحاً، والدليل الوحيد كان عينا السنيورة فورتسكيو الشريرتان.. وهي لن تفكر أبداً أن تعطيه فرصة البراءة، خصوصاً إذا كانت تعتقد أن هذه البراءة ستقنع ابنها ببراءة صابرينا أيضاً.

تصورت كذلك أن ماريو سيجد أن وقوع ابن خاله المتسلط تحت رحمته أمر في صالحه، ويحاول أن يجعله يشرح ماذا كان يفعل في غرفتها في الساعات الباكرة من الصباح.. وسيبقى على استعداد كي يصدق بأنها دعت ريكاردو إلى غرفتها لسبب واحد.

نظرت إلى القسمات القاتمة وكأنها تتوسل:

ـ أنا.. لا أعرف ما أقول سنيور غانتيوني.

ـ أمر مؤسف، هذا أقل ما يقال.. لكنك لست ملامة أبداً.. وفي هذا الظرف اضطررت إلى التصرف بالطريقة التي رأيت أنها

الأفضل.. لم يكن هناك جدوى من الإنكار وبما أن تاريخ عائلتي يجعل من المستحيل التصديق بأن زيارتي كانت بريئة.. اتخذت الخطوة الوحيدة الممكنة.

ـ وهل.. فعلت؟

نظرت إليه قلقة، عيناها الخضراوان متلهفتان ويد مرتجفة تزيح الشعر الأسمر عن وجهها.. ولم ينظر إليها وهو يتكلم لكنه أطفأ بقايا سيجارته في منفضة:

ـ قلت إنني.. أنوي الزواج بك، ومن حقي تماماً أن أزورك ولوقت قصير في غرفة نومك.

حبست صابرينا أنفاسها ترفض تصديق ما تسمع.. قلبها كان يضرب بصوت مرتفع، كانت واثقة أنه مسموع لريكاردو.. ومد يده يأخذ سيجارة ثانية ويشعلها:

ـ أنت.. جدياً.. تحاول أن تقول لي.. إنك..

ـ من غير الممكن أن أمزح في مسألة جادة كهذه آنسة رويس.. صابرينا.

همست ويدها على عنقها حيث النبض يضرب بشدة:

ـ لكنك لست مضطراً للزواج مني.

ـ وهل توقعت أن أتخلص منك؟

أدركت لأول مرة كم جرحته بتفكيرها هذا.

ـ أنا.. آسفة.. لكنك لست مضطراً للمضي إلى هذا الحد لتصحح الأمور لأجلي، سنيور غانتيوني.. هذا.. غير منطقي!

القسمات المتعجرفة بدت مشدودة متصلبة وقاسية وأحست بالتوتر الذي يوقف غضبه عند حده.

ـ هل أفهم من هذا أنك تجدين فكرة الزواج مني كريهة بحيث ترفضينها؟

فكّرت أن تتكور على نفسها وتموت للسخرية البادية في صوته.. وهزت رأسها بشدة:

ـ لا.. لا.. بالطبع لا.. لكن..

ـ أم ربما تفضلين الظن بك كعشيقة لي؟

ـ أوه.. أرجوك.. أنا..

أصابها الرعب حين أحست أن هناك دموعاً في عينيها فمسحتها بسرعة بيد مرتجفة.. قبل أن تستعيد نفسها تماماً امتدت أصابع قوية تمسك بذقنها.. مرة أخرى، ذلك الإحساس المألوف بالإثارة اجتاحها من لمسته..

قال بصوت منخفض:

ـ ربما كنت متسرعاً في قولي لك هكذا.. أنا ليس لدي، موهبة ماريو في التودد..

نظرت صابرينا إليه دائخة.. لا تعرف ما إذا كان يجب أن تستجيب له أو أن تكون حذرة في حال تغير مزاجه بسرعة.

ـ وماذا قال ماريو.. عن..

ـ عن فكرة زواجي منك؟ أظنه كان مصدوماً بحيث لم يستطع أن يقول شيئاً.. لكنني لا أشك في أنه سيعوض عن صدمته حين يستوعب الفكرة.. وأنت ماذا عندك صابرينا؟

استدارت لتسير نحو النافذة، تنظر إلى الحديقة في الأسفل، إلى الأشجار الباسقة والبركة اللامعة في شمس تموز الحارة التي تنعكس بأشكال مختلفة على السقف.. لا شك أنه استغل غيابها عن الفطور ليقوم بإعلانه، وشكرت السماء لبقائها مع طونيو بدل النزول كما تفعل عادة.

قالت دون أن تستدير:

ـ أنا.. لا أستطيع التفكير بصفاء الآن..

ـ وهل تجدين صعباً أن تستقبلي الأمر؟

هزت رأسها بسرعة:

ـ أوه.. لا.. ليس.. ليس في الواقع. لقد تكلمت مع الكونتيسا.. وقالت..

ترددت في أن تكمل.. لكنه كان يراقبها ووجدت نظرته أقوى من المقاومة..

ـ .. قالت إنك كنت ستتزوج أم طونيو لو كنت.. مكان أخيك.

للحظات بقي مقطباً جبينه.. وكأنما يكره انتقاد أخيه الميت. وخشيت أن تكون تمادت كثيراً.. لكنه هز كتفيه وتلاشى العبوس وقال معترفاً:

ـ ربما كنت سأفعل.

أحست أنه كان سيفعل لا محالة..

قالت:

ـ الكونتيسة امرأة رائعة.

هز رأسه موافقاً.

ـ بما أنني أعرف أفضل من غيري وتعرفين أنت عن الكونتيسة، فمن الأفضل أن تفهمي قراري الآن، إنه موقف مزعج لأية امرأة ولقد أقسمت أن لا تجد أية امرأة نفسها في موقف مثله بسبب عمل ارتكبته.

ـ أنا ممتنة جداً لمراعاتك مشاعري، سنيور غانتيوني.

ـ لا أعرف كم ستكونين ممتنة.. هذا سيبقى إلى أن أرى.. بالطبع لن يكون هناك فارق بالنسبة لك ما عدا أن لديك الآن حماية كونك خطيبتي، وفيما بعد زوجتي..

قاطعته بسرعة:

- لكن.. بالتأكيد.. لو أننا.. لو أنك أصبحت خاطباً لي، هذا يكفي.. لحل المشكلة.

مرة أخرى نظرت إليها العينان الزرقاوان ببرودة.

- تبدين مصممة أن تتجنبي الزواج مني.. أجد ترددك غريباً في مثل هذه الظروف سنيوريتا.. ولا يرضي غروري كثيراً!

- أوه.. لكنني لم أعنِ.. لم أعن أن أكون مراوغة.. أنا آسفة.. الأمر فقط.. أنني لا أريدك أن تمضي قدماً بأي أمر قد تندم عليه فيما بعد سنيور غانتيوني.

لم يتحرك لينضم إليها عند النافذة وشكرت السماء على هذا.. فهو يثير اضطرابها كما لم يفعل أي رجل من قبل، وتحتاج إلى وقت للتفكير. قال بهدوء:

- لا أتوقع أن أندم.. وأظن من الأفضل أن تناديني ريكو.. مثل هذه الرسميات من زوجة المستقبل قد تكون شاذة على أسماع الناس.

كانت أكثر خجلاً من أن تجرب التلفظ باسمه الآن لكنها تحركت لتقف إلى جانبه قائلة:

- طبعاً.

- ربما تظنين أنني أهتم كثيراً بأمور يأخذها الكثير من الناس على أنها من المسلّمات.

هزت رأسها.

- لا.. لا.. بالطبع لا أظن هذا.

جلس على حافة الطاولة ورأت يديه تمسكان بالخشب المصقول، وأحست بتوق لأن تمد يدها وتتلمسهما.

- والدي.. أخي.. وقبلهما أجيال عديدة، أخذوا كل امرأة أرادوها واعتبروها من حقهم، لذلك ترين أن هناك الكثير من

الأسباب للعمة دافينا في شكوكها.

استقام فجأة ليقف مرتفعاً فوقها، طويلاً مستقيماً، قسماته غير العادية تُظهر القلق وهو يراقبها..

- والآن صابرينا.. هل ستعطيني ردك؟

في مواجهة قرار فوري، كادت تُذعر. كان قلبها يخفق بجنون وتحس بساقيها ضعيفتين جداً، ترتجفان بحيث خشيت أن تخذلاها في أية لحظة.

نظرت إلى قسمات وجهه السمراء المحدَّدة بدقة، وإلى عينيه الزرقاوين تحت حاجبين أسودين.. وعرفت ماذا يجب أن تقول حتى قبل أن تقفز الكلمات إلى شفتيها.. وبصوت أجش منخفض.. قالت:

- سأتزوجك ريكو!

* * *

٧ ـ قبضة الغضب

مرت ثلاثة أسابيع على زواجهما في مراسم هادئة في نابولي، غير أن شمس أيلول الدافئة كانت تعطي جواً حزيناً غير مناسب.. ولم تكن صابرينا قد اعتادت بعد على أن تنادى بالسنيورة غانتيوني.. لكنها كانت تحس بذعر غريب في كل مرة تسمع الاسم.. وتتساءل ما إذا كانت قد أخطأت بالقبول بمثل هذه الخطوة التي لا يمكن الرجوع عنها.

لكن حياتها لم تتغير كثيراً.. فقد كان ريكاردو يعتقد أنه قام بما هو مطلوب منه حين أعطاها اسمه.. كانت لا تزال تحتل غرفتها، وغرفة طونيو بينها وبين غرفة ريكاردو، وهذا ترتيب نظرت إليه السنيورة فورتسكيو باستغراب.

وكان من الواضح أن الكونتيسة تنظر إلى هذا نظرة الأمر المشوّق.. وتعتقد صابرينا أنها قالت هذا وبكل صراحة لريكاردو.. ماريو من ناحية أخرى اعتبر هذا إشارة جيدة لنشاطه المستقبلي، وحاول أكثر من مرة أن يغريها بالخروج معه لقضاء أمسية.

حتى الآن قاومت محاولاته، لكن الطقس كان جميلاً جداً وهناك الكثير لم تره بعد، وظنت أنها ستوافق معه بعد وقت ليس بطويل إذا كان مصرّاً.. وكونه ماريو.. أصرّ، وفي النهاية

ضعفت.

كان يوماً رائعاً.. الشمس مريحة.. أدخل ماريو رأسه من الباب مبتسماً متأملاً.. كان الوقت منتصف الصباح، ونظرت صابرينا إلى ساعتها تعبس في وجهه استغراباً، متسائلة ماذا يفعل هنا بدلاً من أن يكون في المصنع.

قال بابتسامة لا تقاوم:

ـ أنا.. كيف يقال هذا؟ متغيب دون عذر عن واجبي..

وضحك طونيو.. وقالت معترضة:

ـ لكن ماريو لو أنك..

وضع اصبعه على شفتيها:

ـ كوتيو!

والتفت إلى طونيو غامزاً بخبث:

ـ قُد قُيا.. طونيو.. هه؟

وضع طونيو كتابه من يده وخرج إلى الشرفة بينما أخذ ماريو مكانه إلى جانبها.. حاولت أن لا تبتسم لكن ماريو كان يذكّرها كثيراً بطونيو وخبثه حتى أنها وجدت صعوبة في إبقاء وجهها جامداً وهو يأخذ يديها بين يديه ويميل إليها بابتسامة إقناع.

ـ ماريو..

مرة أخرى وضع الاصبع على شفتيها:

ـ هس..! إلى أين سنذهب، كاراميّا؟

ـ ماريو.. لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان معك وتعرف هذا.. يجب أن أعطي طونيو دروسه.

ـ دروسه.. هاه! وهل تعطي السنيورة غانتيوني دروساً وكأنها مربية؟ أنت السنيورة غانتيوني، بيلا سيما ميّا! يجب أن تتذكري هذا!

ـ كنت أتساءل إذا كنت أنت تتذكر هذا أم لا.. لم يعد الأمر كما كان الآن، ماريو.. أليس كذلك؟

ـ آه.. صابرينا.. بيلا ميّا! لقد استغليت هذه الفرصة لأكون معك.. فهل أنت بالقسوة التي تدفعك إلى صرفي؟ لن يكون هذا سوى لوقت قصير كاريسيما.. هه؟

أدركت صابرينا أنها لن تستطيع تجنبه وأنها ستستسلم.. لكنها فعلت هذا بشيء من الارتياب والتردد، وقالت:

ـ حسن جداً.. سأخرج معك ماريو.. لكن فقط لفترة قصيرة.

ـ بيني! أين سنذهب كاراميّا؟

هزت رأسها تضحك رغماً عنها، لغبطته في أنه أقنعها أخيراً.

ـ هناك الكثير من الأماكن التي أرغب في رؤيتها، مثلاً أحب أن أذهب إلى «بومبايي» فهل هي بعيدة من هنا؟

بدا مرتاعاً لاختيارها:

ـ بومبايي؟

ـ أريد رؤيتها.. لكن إذا لم تكن راغباً في اصطحابي سأذهب وحدي، وأحصل على دليل سياحي.

ـ وتتسببين لنفسك بالكثير من المتاعب مع ريكاردو كذلك كاراميّا! أتظنين أنه سيسمح لك بالخروج مع دليل وكأنك من السواح، ووحدك؟ ديا ميّا! يا إلهي!

ـ لكنه لا يأخذني بنفسه إلى أي مكان.. لذا لا خيار لي..

وتمنت فور أن خرجت الكلمات من شفتيها لو أنها لم تقلها، وأكدت ابتسامة ماريو تسرعها.

مال يعانقها، وكانت المرة الأولى منذ زواجها.

ـ أوه.. بوڤرا بيكولا! أشفق عليك.. سي؟

بدا أنه غير مهتم بوجود طونيو على كرسي في الشرفة وأنه يسمعهما تماماً.. ولم تجرؤ على التفكير بما قد يقوله ريكاردو لو عرف أنه هنا.. وتساءلت مرة أخرى لماذا هو هنا.

ـ ماريو.. كيف تمكنت من المجيء إلى هنا؟ أيعرف ريكاردو بغيابك؟

هز كتفيه دونما اكتراث:

ـ ربما.. من المفترض أنني سأحضر بعض الخرائط من المكتبة. وكان هذا عذراً جيداً لرؤيتك.. كاريسيما!

مرة أخرى مال ليعانقها، فتراجعت تنظر إلى الشرفة، لتجد طونيو كما يبدو مستغرقاً في المناظر إلى أسفل الشرفة.

ـ ماريو.. أرجوك.. لا تفعل هذا!

كان عليها أن تفكر بأن طونيو قد يخبر عمه بهذه الزيارة المختلسة وتمنت صادقة أن لا يفعل.

سعى لمعانقتها مجدداً:

ـ أوه.. كارا!

لكنها تجنبته مجدداً تدفعه عنها بكلتا يديها.. نظر إليها متنهداً بعمق:

ـ وهو لا يعانقك كذلك.. أيفعل؟.. هذا مؤسف جداً كاراميّا! لو أن لي زوجة جميلة هكذا لن أقضي معظم وقتي في العمل.

ردت ضاحكة:

ـ لو كان لك زوجة فإنني أشك في أن تمضي وقتاً كثيراً معها! أنت لست من النوع الذي يستقر في زواجه ماريو.

ـ ولا ريكاردو كذلك على ما يبدو.. لم يكن زوجاً جيداً حتى الآن.. كاريسيما.. أليس كذلك؟

قطّبت صابرينا جبينها تنظر إلى يديها وتهز رأسها:

ـ هناك أشياء لا تفهمها أنت.. ريكاردو هو زوجي، ولا يعجبني أن أسمع كلاماً سيئاً عنه.

أمسك يديها بيديه:

ـ إذن يجب أن يتصرف كزوج! لكن على الأقل عدم اهتمامه يسمح لي أن أخرجك معي.. بيلا ميّا.. سي؟ إذا أردت الذهاب إلى پومپايي فسنذهب، لكن دون طونيو.. هه؟

نظرت صابرينا إلى الولد الصغير على الشرفة. وقالت:

ـ لا أستطيع أن أتركه ماريو.

قطب جبينه بنفاد صبر:

ـ بالتأكيد تستطيعين تركه، كارا. مويرا ستعتني به لبضع ساعات.. إذا طلبت منها هذا!

لم يكن لديها شك أن مويرا ستفعل ما يطلبه منها.. لكن هل ستكون أمه متعاونة.. هذه مسألة أخرى.. لو أخبر أحد ريكاردو عن خروجهما فستكون عمته.

ـ لست أدري.

ـ أوه.. كارامبّا! استعدي، وسأذهب لأتوسل إلى مويرا لتكون «بامبينايا» لفترة قصيرة.. سي؟

تنهدت صابرينا مستسلمة.. فالجدال مع ماريو لا جدوى منه، مثل الجدال مع ريكاردو.. لا يصل إلى أي مكان.. وقالت:

ـ سي..

وقف على رجليه، وراقبته يخرج تفكر مجدداً بحكمة الخروج معه، ثم تنهدت وتقدمت لتشرح الأمر لطونيو.. كان مكوَّراً على المقعد، والتفت نحوها بنظرة خبث:

ـ زيو ماريو.. يا، يا، يا..!

وأدار عينين ماكرتين إلى السماء فهزت صابرينا رأسها.

ـ طونيو.. أرجوك.. لا تتكلم هكذا! عمك ماريو وأنا مجرد..

هزت كتفيها معترفة بعدم جدوى محاولة الشرح، فهذا على الأرجح سيورطها أكثر.. وتنهدت مكملة:

ـ لن تمانع في البقاء مع زيا مويرا لفترة قصيرة.. أتفعل حبيبي.. بينما أخرج أنا في نزهة؟

مد يده يضعها في يدها:

ـ مع زيو ماريو؟ أين ستذهبان زيا صابرينا؟

ـ سنذهب إلى «پومپايي» هل ذهبت يوماً إليها؟

أملت أن يطلب الذهاب معهما، لكانت أكثر سعادة وهو معها على الرغم من كراهية ماريو للفكرة.. لكن طونيو هز كتفيه بعدم اكتراث للتاريخ:

ـ إنها مجرد حجارة عتيقة.. السواح وحدهم يذهبون إلى هناك.. لا أريد الذهاب.

ابتسمت لسخريته وانحنت تقبله على رأسه بخفة.

ـ إذن لن تمانع في البقاء مع زيا مويرا وأنا في الخارج.. أليس كذلك؟

هز رأسه وعيناه السوداوان الكبيرتان تنظران إليها بحكمة رجل عجوز:

ـ ولن أقول لزيو ريكاردو أين ذهبت!

نظرت إليه مرتاعة أمام مؤشر الخداع:

ـ طونيو!

ـ اذهبي.. لن أمانع.. سوف تمرحين.. لا؟

www.elromancia.com

فتحت صابرينا فمها لتحتج مجدداً، لكن بدا لها أن لا جدوى من هذا أمام نظرة الخبث.. فهي مهزومة قبل أن تبدأ. فانحنت تقبله مرة أخرى على جبينه تقول له بحزم:

ـ أنت مثل عمك ماريو تماماً سيو طونيو!

لم تخف صابرينا سعادتها بالخروج مع ماريو، وأقنعت نفسها أن ليس لدى ريكاردو سبباً حقيقياً ليتذمر.. وكأن زواجهما زواج عادي. أو أنه أظهر أي ميل في أن يأخذها إلى أي مكان. فهو ليس بالرجل الذي يتمتع بالحياة الاجتماعية ويفضل أن يصرف كل وقته وطاقته في شؤون الشركات التي يديرها.

كان من الواضح أن ماريو يفضل الذهاب إلى أحد المنتجعات الصغيرة الساحرة على الساحل يسبح ويسترخي على الشاطىء.. لكن صابرينا أصرت على الذهاب إلى «پومبايي» وأذعن أخيراً لمشيئتها، فهي تحس أن رحلة من هذا النوع ستكون أقل إرباكاً لريكاردو من مجرد الذهاب إلى الشاطىء في مكان ما.

الطريق إلى المدينة الأثرية المدمرة جعلت الرحلة مستحقة للجهد، وتمتعت بها كثيراً.. كانت الطريق الرئيسية نفسها التي تمر قرب القيلا، والتي سافرا من قبل عليها إلى نابولي، لكن هذه المرة استدارا في طريق أخرى متجهين إلى الجنوب، ثم خرجا عن الطريق الرئيسية باقترابهما من وجهتهما.

كان ماريو يقود السيارة دائماً وكأنه في حالة طوارىء.. وهذه المرة لم تتردد صابرينا في الطلب منه أن يقود السيارة ببطء ليكون لديها الوقت للتمتع بالمناظر التي تقطع الأنفاس والتي توفرها الرحلة لها.

قالت:

ـ المكان جميل جداً.. وأريد أن أتمتع برؤيته ماريو.

خفف سرعته وكشّر وجهه:

ـ سي سنيورة! كلماتك أوامر لي! ألا يقال هذا كراميّا؟

ـ أجل.. لكنني أشك كثيراً في صحتها في هذه الحالة!

ـ أوه.. بيلاسيما.. ألم أخفف السرعة حتى أنني أكاد أكون متوقفاً لكي تستطيعي مشاهدة مناظر الريف؟

ضحكت لمبالغته في الهدوء:

ـ ألا تريد رؤيتها أنت أيضاً؟ إنها جميلة جداً.. وأنا واثقة أن لا أحد يمكنه أن يسأم من مناظر كهذه.

ابتسم ماريو:

ـ إنها جميلة جداً.. وأنت كذلك كاريسيما.. أنت والريف الجميل متشابهان.

بطريقة ما جعلتها كلماته تشعر بالاكتئاب فجأة:

ـ هذا ما أرجوه.

نظرت إلى الريف حولهما، وتمنت لو يجد ريكاردو الوقت ليصطحبها في نزهات مشابهة..

لاحظت امرأة تراقب زوجها يعمل تحت جذوع أشجار الزيتون الرمادية المتشابكة خلا تفكيرها من ضغوط الحياة وتجعّد وجهها الذي تلاعبت به تقلبات الطقس، ورسمت ابتسامة دون أسنان بعد أن لوحت صابرينا يدها لها.. كانت نزهة منعشة خالية من الهموم وأحست بالامتنان لماريو بسبب اقتراحه الرحلة فاستدارت تبتسم له وتلتقي بعينيه.. فابتسم بدوره متسائلاً:

ـ كارا؟

هزت رأسها وضحكت بنعومة:

ـ أنا فقط.. سعيدة جداً.. ولماذا أكون غير هذا؟

ـ لماذا حقاً.. پو غويجنا؟

ـ هذا اسم جديد لي.. ما معناه؟ أم أنه لا يجب أن أسأل؟

ـ ولماذا لا تسألين كارا؟ إنه يعني ابنة عمي الصغيرة.

ـ أوه.. هكذا إذن.. أجل، أعتقد أنني الآن ابنة عم أو خال لك.. أليس كذلك؟

ـ منذ أن تزوجت ريكاردو.. أنت هكذا. مع أنني كنت آمل لو تركك حرّة، كاراميّا.. أو على الأقل جعل منك زوجة كاملة. فهكذا أنت إغراء بعيد المنال ولا يقدّرك أحد.

ـ ماريو.. أرجوك!

لا تريد أن تناقش علاقتها بريكاردو، لا سيما الآن وهي تشعر بالابتهاج والمرح.. أعادت الرحلة اللون إلى خديها واللمعان إلى عينيها الخضراوين، وبدت جميلة جداً، خصوصاً أمام عيني ماريو.

قال:

ـ إنها خسارة كبيرة كاريسيما!

ـ هذا شأني.. وشأن ريكاردو.. والآن أرجوك دعنا لا نتكلم عن شيء من هذا ماريو.. أريد أن أتمتع بالنزهة.

ـ والحديث عن ريكاردو يفسد لك متعتك؟

نظرت إليه لحظة، إلى جانب وجهه الجميل والرموش الطويلة التي تكاد تخفي عينيه وتعطي ظلالاً على وجهه الذهبي.. إنه جميل الطلعة جذاب جداً، أحياناً كانت تتساءل عما إذا كان بالإمكان أن تحبه بعمق.

لكن هناك ريكاردو دائماً.. ريكاردو الذي تزوجها ويتصرف معها وكأنه لا يزال رب عملها.. أما ماريو فهو يتصرف كما يجب على الزوج أن يتصرف، لكنها واثقة من أنه ما كان ليتزوجها. إنه موقف محيّر، كانت أحياناً تتساءل كيف سينتهي كل هذا.

ثبت لها أن «بومباي»، بعد وصولهما إليها، مثيرة للاهتمام بقدر ما توقعت، وكانت مسرورة لأنها وجدتها خالية من الزوار بفضل نهاية الصيف.. كان هناك زوار، لكن ليس تلك الجموع التي لا نهاية لها والتي كانت تجول في المدينة القديمة خلال موسم الصيف المشرق.

بدا لصابرينا أن لزيارة المدينة مناسبة مميزة، بعد أن كانت حتى الآن مجرد شيء قرأت عنه في المدرسة.. كانت الأعمدة، بقايا القصور الجميلة، والمعابد، ترتفع نحو السماء الصافية، تبدو جديدة بشكل يثير الدهشة، وتعطي فكرة عن مدى فخامة المدينة في أيامها.

الشوارع العريضة التي اكتشفت تحت الغبار الشامل الذي راكمته القرون فوقها، حيث كانت العائلات الثرية تعيش، أصبحت طرقها منحوتة بآلاف الأقدام الغريبة.. واكتشفت صابرينا معبد الإله أبولو، وجذبها على الفور تمثاله البرونزي الضخم الذي ينتصب فوق كتلة حجرية وسط درج عريض محاط بأعمدة كانت قديماً تُرفع لأجل مجده.. إنها قطعة عمل فنية رائعة، مع يديه الممدودتين، وكأنه كان يحمل فيهما منذ القديم القوس والسهم الذهبي الذي قتل فيه الوحش.

كان في التمثال إحساس حي.. في اكتمال نحته، حتى أنها أحست بنفسها منجذبة لتقف أمامه بإعجاب وكأنها إحدى العابدات العتيقات تقف لتقدم الولاء له.

انتظرها ماريو.. ولو بغير صبر، يستند إلى درجات سلم قريب غير مهتم بما يحيط به:

ـ صابرينا!

صوته أعادها إلى الواقع فتخلت عن حلم يقظتها على

مضض، ابتسمت وسألت:

ـ هل أمضيت وقتاً طويلاً هنا؟

ضحك بنعومة متقدماً ليضع ذراعه على كتفيها.

ـ لقد كنت تقفين معجبة بأبولو لوقت يكفي، كاراميّا. وسأشعر بالغيرة منه لو أعطيته المزيد من وقتك.

ـ أنا آسفة.

ـ آسفة لشعوري بالغيرة منه؟

ـ لا.. لأنني أبقيتك منتظراً.. كنت صبوراً جداً معي.

نظرت إلى الساعة الذهبية في معصمها وقطّبت جبينها:

ـ لقد مرّ الوقت بسرعة.. وأظن أنه من الأفضل أن نعود ماريو.

ـ أتظنين أن زوجك سيفتقدك؟

بدا صوته يسخر من هذه الإمكانية، وأحست صابرينا بتلون خديها بشدة.. لم تكن تعرف ما إذا كان ريكاردو سيوافق على وجودها مع ماريو أم لا.. لكنها واثقة تماماً أنه سيغضب جداً لغياب ماريو عن المصنع ليخرجها في نزهة، وودّت لو تعود قبل عودته واكتشافه غيابهما. كما أنها لم تكن راغبة في أن تسمع مثل هذه التعليقات من ماريو عن ابن خاله.

قالت بهدوء:

ـ أعتقد أنه سيفتقدني.

ـ كما سيفتقد أي شيء ضائع يملكه.

شدت صابرينا قبضتيها وبرقت عيناها غضباً:

ـ ماريو.. ليس لك الحق في أن تتكلم هكذا!

لكن ماريو لم يكن في مزاج لبق، وفضحت تعابير وجهه المتجهمة غيرة لم ترها فيه من قبل، أجفلتها بحدتها.. وقال

بخشونة:

ـ ليس لي حقوق في شيء أبداً. أنا «اليوڤر كوجينو» القريب الفقير! ليس لي حقوق، ولا أملاك.. أوه ديو ميّا! أحياناً أكاد أكره ريكاردو!

ـ ماريو.. أرجوك..! أرجوك لا تقل هذا!

لم تره من قبل يعبر عن هذه الكراهية، وتساءلت ما الذي أثار مثل هذه الشجون فجأة. للحظات بقي صامتاً ينظر إليها بعينيه الدافئتين السوداوين، ثم تحرك يضع ذراعه حول خصرها يحتضنها قريباً منه. وقال هامساً:

ـ أنا آسف، كاريسيما.. إنني أفكر ماذا سيقول ريكاردو حين يراني.. أعرف أنني سأكون.. كيف تقولين؟

ـ في مواجهة قفزة حاسمة؟

ـ سي.. سي.. سيضعني صابرينا أمام القفزة الحاسمة كما يفعل مع جياده.. وسأضطر أن أقفزها، بيلا ميّا، وإلا سيفرقع بسوطه كما يفعل معها!

تذكرت أول انطباع لها عنه.. وكيف تصورته رجلاً عجوزاً يفرقع بالسوط، ويتوقع من الجميع أن يقفز.. كانت مخطئة في الجزء الأول من تقديرها، لكن، ليس في الثاني، كما يبدو.

ـ مسكين ماريو!

لم تستطع أن تفعل شيئاً للضحك الذي التمع في عينيها لإشفاقه المبالغ فيه على نفسه.. وشد قبضته عليها فجأة يجذبها بين ذراعيه.. كانا في زاوية هادئة بعيداً عن بضعة زوار مبعثرين في جماعات، لكنها لم تكن مسرورة من الموقف ووضعت يديها على صدره لتبعده فنيته كانت واضحة.

قال متهماً بصوت أجش منخفض فضح نيته:

ـ أنت قاسية.. مثل كل النساء الجميلات، أنت قاسية كاريسيما. تضحكين على قدري.. وتجدين من المسلي أن زوجك سوف...

وجذبها إليه أكثر على الرغم من محاولتها إبعاده.

ـ ماريو!

ـ كاريسيما!

أغمضت عينيها ببطء.. هذا أمر لا يمكنها السماح به وتعرف هذا. لكن كان في ماريو شيء لا يقاوم، واستطاعت أن تحس بنبض صغير يضرب فوق صدغها.

ـ أرجوك لا تفعل ماريو!

أخيراً استعادت ما يكفي من أنفاسها لتدفعه بعيداً لكنه بقي قربها بما يكفي ليثير الاضطراب فيها.

ـ أوه.. كارا.. ومن سيعرف؟

ـ لا.. ماريو.. أرجوك!

وضعت يديها على صدره مرة أخرى ودفعته بقوة، وهي تدير رأسها يمنة ويسرة لتتجنبه وعيناها متسعتان ذهولاً.. وقطب ماريو بعجب:

ـ صابرينا.. ما الأمر؟

أدار رأسه وفي لحظة سريعة تراجع إلى الوراء.. لا مجال للخطأ بالطيف الطويل المتقدم نحوهما يبتطون رمادي وقميص أبيض، ويداه تتأرجحان بخفة على جانبيه. كان هناك جو منذر بشرّ حول ريكاردو غانتيوني أعطى التجهم لقسماته البرونزية وأرسل رجفة ارتباك في جسد صابرينا.

حتى على بعد أمتار استطاعت أن ترى أن تلك العينين الزرقاوين الثلجيتين، ما كانتا يوماً أكثر برودة.. وتساءلت أي

واحد منهما، هي أم ماريو، سيكون هدف معظم غضبه.. ولم يقل أي منهما كلمة بل انتظرا وصوله واستطاعت صابرينا أن تحس قلبها يخفق متثاقلاً بين ضلوعها.

هذه المرة الأولى التي تحس فيها بمثل هذا الإحساس المترقب الغريب والمبهج معاً. وقالت لنفسها إن السبب هو الخوف مما قد يحدث لماريو.. لكن في مكان ما من تفكيرها استمر شيء ما يذكرها أن طيف الانتقام هذا المتقدم نحوهما هو زوجها.. إنه إحساس مثير غريب أن تدرك هذا فجأة.

توقف مباشرة أمام ماريو متجاهلاً صابرينا تماماً.. فتراجعت دون إرادة منها إلى الوراء.. صوته كان فولاذياً وأكثر خشونة مما سمعته يوماً.

ـ تركت المصنع لتحضر بعض الخرائط، كما فهمت..

هز ماريو رأسه.. وكان في عينيه بريق تحدٍ خفيف، لكن صابرينا كانت تشك في أن يصل التحدي إلى حد النضوج.

قال بحرد قدر ما يمكن لطونيو أن يفعل:

ـ لقد نسيت أمرها.. أنا آسف ريكاردو.

ـ لقد فضلت التنزه في الريف مع زوجتي بينما روبي ينتظر الخرائط.

تمسكه بصفتها كزوجة كان له تأثير مبرّد ولا ينبيء بأي لمحة غيرة، وأحست صابرينا بالانكماش.. متمنية أن تنشق الأرض الترابية من تحت قدميها وتبتلعها في الهوة البركانية المظلمة التي دفنت فيها المدينة.

ـ ما، ريكاردو، لي سي إي سبا غلياتو..

قاطعه الصوت المثلج:

ـ زوجتي لا تتكلم الإيطالية.. أرجوك تحدث بالإنكليزية.

كان يقصد أن يذل ماريو بقدر الإمكان أمامها، هذا ما هو واضح.. وتمردت أحاسيس صابرينا لقساوة ما يجري. رفعت ذقنها متحدية، تعرف جيداً أنه سيكره تدخلها لكنها كانت مصممة على أي حال.

ـ لا داعي لإثارة كل هذا الضجيج حول المسألة، كانت غلطتي.. بقدر ما هي غلطة ماريو، إننا جئنا إلى هنا.. وأنا آسفة لأن هذا لا يوافقك ريكاردو.. لكن أرجوك لا تصب سخطك على ماريو.

للحظات لم يتحرك ولم يتكلم، وتساءلت عما إذا كان سيستمر في تجاهلها مع أنها استطاعت أن تحس بالغضب المتصاعد منه، ثم استدار ببطء ينظر إليها وعيناه تلمعان بغضب:

ـ لست بحاجة لكي تخبريني أنك ملامة على ما حدث.. لكنني لا أشك أبداً في أن يكون ماريو هو المحرّض.

نظر إلى ابن عمته مجدداً متجهم الوجه لا يلين، رأسه الأسود الشعر مرتفع بعجرفة وذقنه المربع بارز بعدائية:

ـ ستعود إلى المصنع وتأخذ الخرائط إلى روبي.

نظر ماريو إلى صابرينا فسارع ريكاردو يقول:

ـ سأعيد زوجتي بنفسي.

ـ أفضل أن أعود مع ماريو!

لم يكن لديها فكرة عما الذي دفعها لتقول هذا.. وللحظات نظر إليها الرجلان غير مصدقين.. ثم هز ماريو رأسه ببطء عيناه تتوسلانها أن تغير قرارها.. وقال ريكاردو:

ـ ستعودين معي! إندار إميدياتمون ماريو، پيرفاڤور!

نظر ماريو نظرة استسلام أخيرة إلى صابرينا ثم استدار يسير إلى حيث أوقف السيارة، وراقبته يرحل بإحساس ذنب أكيد..

صحيح أنه هو الذي ألح عليها أن تخرج معه، لكن لو كانت مصممة أكثر في رفضها ما كان حدث كل هذا.. وتمنت لو أنه لم يحدث.

لم تنظر مباشرة إلى ريكاردو، بل من خلال رموشها، لا تشجعها نظراته المتجهمة الغاضبة.. ثم ودون كلمة أمسك ذراعها بقبضة من حديد، وقادها متوجهاً إلى موقف السيارات.. خطواته الواسعة جعلت من الضروري عليها أن تركض لتبقى إلى جانبه وأحست كطفلة هاربة تُعاد إلى المنزل على يد أب غاضب!

وقفت في مكانها فجأة مع أنه كان لا يزال يجرها معه وهو يتقدم.

ـ توقف عن هذا!

تراخت أصابعه عن ذراعها قليلاً لكنه بقي ممسكاً بها وعرفت أن من غير المجدي محاولة التخلص منه:

ـ أنا.. لا أستطيع الاستمرار في متابعة خطواتك، ريكاردو. وأرفض أن تجرني وكأنني عبدة هاربة!

كادت تقسم أن لمعان تسلية ظهر لوقت قصير في عينيه لكنه سرعان ما ضم فمه بحزم، ونظر إليها.

قال بهدوء بارد:

ـ لقد استخدمت مثل هذا التشبيه من قبل حول علاقتنا. وقد أقول لك إنني في هذا الوقت أتمنى لو أنك تُباعين وتُشترين!

قالت متسرعة:

ـ أوه.. إذا أردت الخلاص مني.. فهذا أمر بسيط! ما عليك سوى طردي!

لم تغيّر القسمات الصارمة تعابيرها لكن شيئاً في عينيه تغير.. استطاعت أن تشعر بخفقان قلبها الثقيل بين ضلوعها،

والإحساس الغريب بالعجب مجدداً.

سأل بصوت منخفض:

ـ وهل ستذهبين؟

وعاد ليسير مرة أخرى، يجرها معه، لكن بسرعة أقل. ثم قال لها بحدة:

ـ مطلوب منك الليلة أن تكوني السنيورة غانتيوني.. رسمياً.

ارتعش قلبها بجنون إلى أن أدركت أنها أساءت فهمه فسألت مقطوعة الأنفاس:

ـ كيف؟ أعني.. أعني.. أين؟

رد بهدوء:

ـ أوه.. لا تخافي.. أريدك فقط أن تقومي بدور المضيفة لزميل عمل مهم.

ـ أوه! هكذا إذن.

ـ أعرف أن لديك ثوباً مناسباً. وسيكون لديك الوقت الكافي حين نعود لتغيري ملابسك وتجعلي نفسك مقبولة قبل أن يصل.

ـ أنا آسفة.

فتح الباب وساعدها لتصعد.. وقال بهدوء:

ـ أعتقد أنك ستعبرين عن أسفك في أن لا تفعلي مثل هذا مرة أخرى.

احمر وجه صابرينا سخطاً.. وقالت متسرعة:

ـ أنا آسفة لأنني أزعجتك بعدم وجودي في المنزل ساعة وصلت.. لكنني لست آسفة لأنني خرجت مع ماريو فأنا أحب أن أخرج كثيراً.. وأنت..

عضت شفتها وهو يجلس خلف المقود إلى جانبها وتلامس ذراعه العارية ذراعها..

أدار المحرك ثم أدار رأسه ينظر إليها:

ـ تجدينني مقصراً كزوج.. وأتصور أن احتياجاتك في هذا المضمار قد اهتم ماريو بها ولا تحتاجين شيئاً مني.. «أمانتي».

كانت صابرينا ستجادله ستقول له إنه مخطىء حول مشاعرها نحو ماريو.. لكنه شاهدها بأم عينه بين ذراعي ماريو يضمها بين خرائب معبد أبولو.. ولقد توصل إلى استنتاجاته الخاصة.. ولسوف تسأل ماريو عن معنى كلمة «أمانتي».

* * *

www.elromancia.com

٨ ـ الجنة الزائفة

لم يعد ماريو إلى الڤيلا حتى وقت متأخر من عودة ريكاردو وصابرينا. . كانت صابرينا تغادر الحمام، عائدة إلى غرفتها حين شاهدته، وخشيت ظهور ريكاردو المفاجيء، مع ذلك خاطرت بالسؤال عن الزائر المتوقع لأن ريكاردو لم يقل لها أي شيء عنه. . قال ماريو:

ـ إنه السير آرثر غيليس، رجل إنكليزي ثري جداً كاريسيما.

بدت عليها الدهشة:

ـ إنكليزي؟ لم يقل لي ريكاردو إنه إنكليزي.

ـ ربما كان يأمل بمفاجأتك.

طافت عيناه فوق جسدها النحيل، المغطى بروب أزرق شاحب. . وقبّل أطراف أصابعها بمبالغة:

ـ تبدين جميلة جداً كاريسيما! هذا الروب. . . همم. . رائع!

هزت رأسها تنظر إلى باب غرفة ريكاردو وهي تتكلم:

ـ من الأفضل أن أذهب لأكمل ارتداء ملابسي قبل أن يأتي ريكاردو للبحث عني.

لمعت عينا ماريو بخبث:

ـ لو رآك في هذا الروب بيلا ميّا، لأذبت له قلبه الروسي المثلج. . ديو ميا. . إنه ليس إيطالياً من عائلة غانتيوني!

ـ ماريو. . أرجوك!

ـ إنه لا يقدّرك حق قدرك بيلاسيما، لذلك فهو لا يستحقك!

ـ أرجوك. . لا. .

جعلهما صوت خفيف من مكان بعيد في الرواق ينظران إلى باب غرفة نوم ريكاردو، لكن قبل أن يظهر تسلل ماريو بسرعة إلى الحمام الذي أخلته صابرينا لتوها.

لم يكن من عادتهما ارتداء ثياب رسمية للعشاء. . لكن الليلة مناسبة خاصة، وكانت المرة الأولى التي ترى فيها صابرينا ريكاردو في ثوب سهرة رسمي. . السترة البيضاء الموهير الفاخرة المفصّلة لتناسب جسده كانت تكشف مع كل حركة يقوم بها تحرك عضلات ذراعيه وكتفيه. . وأحست بالدم يتدفق عبر شرايينها، وللمرة الثانية ذلك اليوم ذكّرت نفسها أن هذا الرجل هو زوجها.

كان واضحاً من طريقة نظره إليها أنه معجب بما يكشفه الروب الحريري الأزرق. . لكن هل أذاب هذا قلبه الروسي المثلج أم لا، كما قال ماريو؟. . قامت العينان الزرقاوان بتقييم سريع محسوب لها من الرأس حتى القدم، ثم نظرتا إليها بثبات للحظات. . كان لا زال فيهما لمحة من ذلك الغضب البارد الذي كان فيهما في وقت سابق. . لكن الأسوأ كان قد تلاشى وشكرت السماء لهذا.

ـ يجب أن تسرعي إذا أردت أن تكوني جاهزة في الوقت المناسب!

نظرت صابرينا إليه مع شيء من الإحساس بالذنب. . خصوصاً حين فكرت باختفاء ماريو في حمامها وأملت أن لا يكون ريكاردو قد رآه يدخله. . وهزت رأسها:

ـ أعرف أنني يجب أن أسرع. . ريكاردو. . أنا. . أتساءل عما إذا كنت ستمانع في أن لا أرتدي فستاني الأخضر.

كان قد طلب منها ارتداء ثوب مميز لأن المناسبة مميزة. والفستان جميل وفخم جداً من الساتان المكشوف الكتفين بلون أخضر، ويعطيها إحساساً بالسعادة وهي تحس بقماشه اللامع الطري حولها.. لكن المشكلة أن له سحّاباً على طول ظهره.. ومن العبث أن تحاول إقفاله بنفسها.. الخادمة الوحيدة في المنزل مشغولة الآن مع السنيورة فورتسكيو والكونتيسة، ومن المحتمل أن تبقى مشغولة لوقت طويل.

ـ هل لي أن أسأل عن سبب عدم رغبتك في ارتدائه؟

ـ ليس لأنني لا أرغب في ارتدائه، لكن ساندرا مشغولة مع السنيورة فورتسكيو والكونتيسة.. وأنا لا أستطيع الوصول إلى السحاب في مؤخرة فستاني الأخضر لأقفله بنفسي.. لذلك فكرت لو أنني ارتديت..

ـ أفضل أن ترتدي الأخضر!

إذن سيكون عنيداً في هذا، ونظرت إليه مؤنبة، محبطة لأنه لم يلِنْ، ولم يكن معقولاً.. وقالت:

ـ إذن يجب أن تعذرني لو تأخرت.. يجب أن أنتظر ساندرا إلى أن تأتي لتساعدني.

ـ لا حاجة لها.. سأساعدك بنفسي.

نظرت إليه غير مصدِّقة، ونبضاتها تتسارع صاخبة.

ـ أنت.. ستفعل؟

عبوس نفاد صبر جذب حاجبيه السوداوين معاً:

ـ أنا زوجك.

ـ أوه.. أجل.. أجل.. بالطبع!

ـ تجدين من السهولة أن تنسي هذا.. هه؟

تنهدت صابرينا في نفسها، تعرف تماماً أنه لن يسمح لها بأن

تنسى تلك الزيارة إلى «بومباي» بسرعة.

وأنكرت بهدوء:

ـ لا.. أنا لا أجد هذا سهلاً أبداً.. وإذا كان من الواجب أن أكون جاهزة في الوقت المناسب، يجب أن أكمل ارتداء ملابسي.. لو سمحت لي.

ـ قلت لك إنني سأساعدك.

ترددت محمرة الخدين غير متأكدة من مشاعرها، ما عدا أنها مندهشة لأن موافقتها المتلهفة هي الغالبة في رأسها في الوقت الراهن.

ـ أنا لا.. أعني.. لا داعي لتزعج نفسك، ريكاردو.

سألها بنعومة:

ـ ربما تفضلين أن أستدعي ماريو ليساعدك؟

حدقت به فاغرة الفم، ثم ضمت ياقة الروب تحت ذقنها ومرت من أمامه بسرعة إلى غرفتها.. ثم استدارت بعد لحظة حين سمعت الباب يُقفل لتجده واقفاً في الداخل، عيناه الزرقاوان تتحديانها لإنكار حقه في أن يكون هناك.

قال بهدوء:

ـ يجب أن تسرعي.. ليس هناك وقت كثير قبل أن يصل ضيفنا.

ـ إنه إنكليزي.

لاحظت وهي تقول هذا أنها جعلته يبدو اتهاماً، وظنت أنها رأت أطراف فمه العريض تلتوي بسخرية:

ـ لا يبدو عليك السرور للقاء مواطن لك.

ـ أنت لم تخبرني أنه إنكليزي.

ـ لا.. لم أفعل.

www.elromancia.com

ـ مع أنك تعرف أنني سأكون مبتهجة جداً بلقاء شخص من بلدي.

ـ لم أعتقد أن زميل عمل لي سيثير اهتمامك إلى هذا الحد.

ـ أوه!

بدا من الواضح أنه يفكر بعمق في شيء ما، وراقبته خلسة من تحت ظلال رموشها تتساءل عماذا يدور في رأسه. أخيراً قال ببطء وكأنه يفكر بكل كلمة قبل أن يتلفظ بها.

ـ أريدك أن تفهمي صابرينا.. بالنسبة للسير آرثر غيليس من المفيد أن يكون لي زوجة إنكليزية.

التقت عيونهما لحظة أو اثنتين، وبسرعة هدأ الإحساس المرير بالكراهية الذي أحست به لفكرة أنه يستغلها لمصالحه العملية.. وقالت:

ـ حسن جداً.. أنا مسرورة أنني مفيدة لشيء ما في تقديرك!

لم تقصد أن يُظهر كلامها كل هذه المرارة، ورأت لمحة عجب قصيرة في عينيه وقطب:

ـ أرجوك.. لا تكوني ساخرة هكذا صابرينا.. هذا غير لائق ولا داعي له أبداً.

ـ أظن أنني...

ـ أرجو، ولهذه الليلة على الأقل، أن تستطيعي تذكر أنك متزوجة مني وليس من ماريو.. فهذا سيعطي انطباعاً أفضل.

أحست باللون الأحمر يحرق وجنتيها وشدت بيديها في قبضتين شديدتين إلى جانبيها.. لم يقل شيئاً وهما عائدان عن وجودها مع ماريو لكن يبدو أنه الآن ينوي التعويض عن هذا.. على الرغم من عدم إمكانية هذا، فقد كانت تأمل أن يكون ولو جزء بسيط من غضبه سببه الغيرة.. لكن انزعاجه الآن يبدو فقط

لخوفه من الانطباع الذي سيتركه أمر كهذا على زميل عمله.. قالت بارتجاف:

ـ لا داعي للكلام معي هكذا ريكاردو.. إنه كلام غير عادل، ودون أي أساس، أن تشك بي هكذا.

نظر إليها ببرود وبدا كأن شيئاً في تصرفاته يجعل نبضاتها تخفق بجنون، وكأنما يترقب شيئاً ما.. وقال:

ـ على ضوء الوضع الذي وجدتك فيه منذ وقت قصير.. أظن أن لي كل الحق في أن أكلمك هكذا.. من حسن الحظ أن تمكنت عمتي من القول لي أين أجدك.. وإلا لكان الانطباع سيئاً جداً لو وصل الضيف وأنت لم تصلي بعد، ثم تبدين وكأنك عائدة من موعد غرامي مع عشيق.

صاحت ساخطة:

ـ أوه.. أوه.. أنت.. أيها.. أنا لا آبه بالانطباع الذي سأتركه على ضيفك العزيز! أنا لا يهمني ما يظنه أي كان.. أو.. أو.. لو أن.. أوه.. أنت.. أنت..

وتعثرت الكلمات بعضها في بعض، لكنها فشلت في تشكيل أي نوع من الجمل المفهومة وبرقت عيناها الخضراوان بغضب.. وقاطعها الصوت البارد:

ـ حسناً.. لكنه يهمني..! وسوف تتصرفين كناضجة عاقلة أمام ضيفي.. مهما كانت نوبات الغضب الطفولية التي تنغمسين فيها في غرفة نومك!

ـ أنت.. أنت.. متوحش!

كانت أنفاسها تخرج مسعورة ومحمومة وتراجعت بسرعة حين تقدم عبر الغرفة نحوها، لكنه قال بهدوء:

ـ كما تشائين.. والآن لا تضيعي وقتاً أكثر من هذا،

صابرينا، أرجوك.. الوقت يتأخر وأريدك في الطابق الأرضي جاهزة لاستقبال السير آرثر حين يصل.

أحست صابرينا أنها تقارب البكاء، لكنها رأت عدم جدوى المزيد من الجدال معه.. فمن المقدر له أن يكون المنتصر، فهي غير قادرة على الإنكار أنها كانت في موقف مشبوه يكفي لإغضاب زوجها.. ولقد شاهدها بأم عينه.. إيجاده لها هكذا لا شك كان ضربة عنيفة لكرامته ولن يغفر لها بسرعة.

أبعدت يده عنها ترفض السماح له بمساعدتها على الأقل في هذه المرحلة.

ـ أستطيع مساعدة نفسي.. شكراً لك!

فتحت الروب، وأنزلته حتى منتصف ذراعيها حين توقفت.

ـ أنت...

ـ سي.. ابريغى!

وجذب الروب عنها يرميه دون اكتراث إلى السرير.

ـ توقفي عن السعي للاعتذار صابرينا وارتدي ثيابك. وإلا فقدت كل صبري معك!

استدارت عنه بسرعة، وأخذت الفستان الأخضر بلون الجاد الذي يريدها أن ترتديه.. انزلق الفستان بنعومة من فوق رأسها، ودست ذراعها بالأكمام ثم مدت كلتا يديها إلى الخلف في محاولة لإقفال السحاب المراوغ.. في لحظة سريعة كان خلفها.. يبعد يديها في نفاد صبر.

ـ أنا هنا لأساعدك.. أيجب أن تكوني صعبة المراس؟

ـ أنا لا أقصد أن أكون صعبة المراس.. أنا..

استدارت لتواجهه لكنه أمسك ذراعيها بخشونة وأدارها مجدداً.

ـ أعدك أنني لو فقدت صبري فستكونين آسفة جداً. الآن أرجوك حاولي أن تتعاوني.. فأنا أحاول مساعدتك!

ـ شكراً لك!

بدت خاضعة هادئة على عكس الصراع الدائر في داخلها.. واستطاعت الإحساس بالدفء يصلها من يده إلى ظهرها وهو يقف خلفها.. أغمضت عينيها أمام الشوق الذي لا يصدق الذي أثارته لمسته فيها لتطمس كل شيء آخر في رأسها.

ـ ابقي جامدة!

جعلها الصوت الآمر العميق النبرات تجفل وتتصلب بسرعة، يذكرها أنه نفد صبره معها.

ـ أنا.. أنا آسفة ريكاردو.

ـ أنت امرأة متقلبة النزوات محيِّرة.. ولم أستطع أن أفهمك!

ردت بصوت أجش غريب:

ـ هل حاولت أن تفهمني؟

أحست به يتوقف عما يفعله.. ثم قال بهدوء:

ـ لقد حاولت.

مرت أصابعه الطويلة على ظهرها مع إقفاله للسحّاب، وارتجفت.. فسألها:

ـ أتشعرين بالبرد؟

كانت يداها مشدودتين بقوة، والنبض عند صدغيها يكاد يعمي بصرها بخفقاته.. لكنها لم تتحرك بل وقفت هناك مسمرة قريبة من قوته الدافئة.

قال بصوت ناعم منخفض قريب من أذنها:

ـ تبدين جميلة جداً.

ثم مد يده يزيح الشعر الأسمر الذهبي جانباً بأصابع مداعبة.

همست باسمه: ريكاردو! وأرادت أن يعرف بماذا تشعر.. لكنها كانت خائفة أن يجد مشاعرها مادة للسخرية.

رد عليها بصوت منخفض:

ـ سي.. أمانتي؟

واندست ذراعاه حولها أخيراً، تديرانها ببطء ضمن دائرتهما إلى أن تمكنت من النظر إلى وجهه البرونزي بعينيه المضيئتين.. عينان لم تعودا باردتين مثلجتين بل قاتمتين بشوق عميق.. لم يكن قد تكلم معها من قبل بالإيطالية كما يفعل اليوم، وقالت لنفسها إن هذا فأل حسن، دليل على أنه لم يعد يعتبرها غريبة.

ـ أنا.. أتمنى.. أنا..

هزت رأسها غير واثقة من نفسها، أو منه، تريد أن تقول له كم تشعر بالأسف لأنها خرجت مع ماريو كما فعلت.. وابتسم.. تلك الابتسامة اللطيفة التي تخفف من توتر خطوط وجهه وتصلبها، حتى يبدو أكثر قرباً، وأقل سلطة.. لقد شاهدت هذه الابتسامة مع طونيو، ومرة أو مرتين مع مويرا، لكنها لم ترها من قبل موجهة إليها.. وكانت نتيجتها خاطفة للأنفاس.

قربها إليه ينظر إليها طويلاً، ثم قال بنعومة:

ـ أمانتي ميّا!

وشدها بقوة إليه، واستطاعت الإحساس بالتوتر الدافىء لجسده، وبالضربات الثابتة القوية لقلبه أسرع من المعتاد، تحت أصابعها المفتوحة على صدره:

ـ ريكاردو!

صدر عنه صوت يشابه الآهة.. صوت خفيض ليس بالإمكان وصفه، وتراجع رأسها إلى الوراء.

ـ كاريسيما! يو أمانتي ميّا!

الكلمات اللاتينية همست مجدداً في أذنها وهو يحملها بين ذراعيه ويتقدم بها إلى الفراش، صوته عميق أجش بالعاطفة التي لا يكاد يكبحها.

استدار بسرعة، عيناه تلمعان، حين سمع دقة ناعمة على باب الغرفة.. فأنزلها بلطف ينظر إليها بشكل غريب، يحاول استعادة تفكيره.

جلست صابرينا على السرير المغطى بمفارش مطرزة.. تكره من أزعجهما كائناً من يكون، وهمست:

ـ يمكن أن تكون ساندرا.

لكنه قطب وكأنه يشك في من يكون بالباب.

ـ صابرينا..! كاريسيما!

كان الصوت لا يكاد يرتفع عن الهمس، واضح أنه يأمل أن لا يسمعه أحد عداها. لكن لا مجال للخطأ فيمن هو صاحبه، وأغمضت صابرينا عينيها للسخرية المؤلمة للموقف.. لم يجرؤ ماريو من قبل أن يأتي إلى غرفتها، واختار هذه اللحظة بالذات ليقرع الباب ويهمس باسمها.. من يستطيع الآن إلا أن يشك في علاقة سرية بينهما؟ أو في لقاء مدبَّر سلفاً؟ بالتأكيد لن يكون ريكاردو في خانة من لا يشك.. ليس بالطبع بعدما رأى بأم عينه المشهد الذي رآه في «بومبايي».. وغاص قلبها ببرود.

كانت تعرف، حتى قبل أن تنظر إليه، ماذا سترى على وجهه.. وكادت تصرخ خوفاً من القسوة والغضب الفج.. نظر إليها ومن تعبير عينيه المثلجتين عرفت أنه كان يكره نفسه ويحتقرها لوصوله إلى لحظة ضعف، بقدر ما يكرهها ويحتقرها لخداعها له كما يراه.

قال بصوت بارد قارس:

ـ يبدو أنني تحولت إلى غبي. أهنئك سنيورة.. فليس من السهل استغفال ريكاردو غانتيوني ليصبح غبياً.

ـ ريكاردو.. أنا..

لكنه لم يكن في مزاج مناسب ليستمع، وصرف النظر عن محاولاتها أن تشرح له.. الحنان والحب المشبوب اللذان كانا منذ لحظات اختفيا وكأنهما لم يكونا.. وقال:

ـ أرجو أن لا تجدي وجودي في غرفة نومك إحراجاً كبيراً لك.

واستدار على عقبيه يسير نحو الباب، ليفتحه.

ـ ريكاردو!

صيحتها لحقت به ووصلت إلى ماريو الذي كان يقف وراء الباب في الرواق، يحدق بابن خاله غير مصدق.

ـ ديو!

تنفس بهلع زائف مدركاً ماذا فعل. لكن صابرينا تجاهلته ولحقت عيناها بريكاردو، قاتمتان بالتعاسة مترقرقتان بدموع ظاهرة.

استدار عند الباب، رأسه الأسود المتعجرف في تناقض كامل مع الجدار الأبيض خلفه.. وقال متجاهلاً وجود ماريو وكأن لا وجود له:

ـ أرجو أن تكوني بارعة في التمثيل هكذا حين تلتقي ضيفنا. أفضل أن يقتنع السير آرثر أن زواجنا عادي، هذا إذا لم يكن هذا كثير الوطأة عليك.

ـ أوه.. ريكاردو.. لا تقل هذا!

ـ سأتوقع وصولك إلى الطابق الأسفل بعد خمس دقائق.

استدار ليخرج من الباب إلى الرواق المكسو بالسجاد.

ساد صمت ثقيل مليء بالمعاني لعدة لحظات بعد ذهابه.. وظنت صابرينا أنها لم تشعر يوماً في حياتها بالضياع والعجز كما الآن.. مهما كان ريكاردو مستعداً لأن ينسى خداعها السابق له، فهو لم يعد الآن على استعداد لينسى مجدداً ولا يمكنها أن تلوم سوى نفسها وماريو.

بدت عينا ماريو مسحوقتان ندماً بشكل لا يصدق:

ـ أوه.. كارا ميّا.. أنا آسف جداً!

وكان من الصعب جداً مقاومة الغضب، لا سيما أن عينيها مليئتان بالدموع.

ـ كيف استطعت فعل هذا ماريو؟ كيف جئت إلى غرفتي؟ أنت لم تفعل هذا من قبل.. فلماذا الآن؟

ـ كارا.. لم أكن أعرف.. وكيف أعرف أن ريكاردو سيكون هنا؟ فهو كذلك لم يدخل غرفة نومك من قبل.. هل فعل؟ ليس منذ زواجكما؟

هزت رأسها ببؤس.

ـ هذه المرة الأولى.. و.. أوه ماريو.. ماذا سأفعل؟

هز كتفيه دون وعي، وليس دون اكتراث، ومد يده يمسح الدموع عن خدها.

ـ ليس هناك وقت لديك لتفعلي شيئاً الآن، بيكولا.. يجب أن تخفي دموعك وتنزلي بعد أقل من ثلاث دقائق.. سنسوي كل الأمور بعد أن يرحل ضيفنا المهم.. لا؟

نظرت صابرينا إلى ساعتها عبر عينين مغشيتين بالدموع وهزت رأسها:

ـ أنا.. أعتقد هذا.. لكنني لا أعرف ما إذا كنت أستطيع ماريو.

ـ أوه.. صابرينا! غرازيوسا ميّا.. تبدين حزينة جداً!

انحنى يقبل جبهتها بخفة:

ـ أيعني غضب ريكاردو بهذا القدر لك؟

كان هذا أسوأ ما يقال في مثل هذا الظرف فتدفقت الدموع دون أن تتمكن من إيقافها، وجذبها ماريو إليه يضع وجهها على كتفه يمسح رأسها المحني بيده مهدئاً:

ـ أوه.. كارا ميّا.. أرجوك لا تبكي هكذا! هل أقول لهم إن لديك صداعاً سيئاً ولا تستطيعين النزول للعشاء؟

دفعت نفسها عنه تمسح يدها فوق عينيها:

ـ أوه.. لا.. لا! يجب أن أنزل! ريكاردو لن يسامحني إذا لم أنزل!

برهن السير آرثر على أنه ساحر ومهذار معاً، مما أسعد صابرينا لأنها لم تكن مضطرة إلى بذل جهد لتسليته.. فقد بدا مبتهجاً جداً برفقة الكونتيسة وكان كذلك راوي قصص جيد ولديه ذخيرة لا تنتهي من النوادر الطريفة.. هكذا اعتقدت أن صمتها الحزين مرّ دون أن يلاحظه أحد ما عدا ريكاردو.

من وقت لآخر كانت تحاول التقاط عينيه عبر الطاولة، لكنه في كل مرة كان يتجنب النظر إليها.. ووجدت صعوبة متزايدة في أن تحافظ على مظهر الهدوء في الوقت الذي يصرّ فيه هو على أن يبقى بارداً معادياً.. وبدا العشاء وكأنه لا ينتهي، وطوال الوقت كانت تخشى أن تبكي عاجلاً أم آجلاً.

قبل انقضاء الوجبة، نظر السير آرثر إلى صابرينا بابتسامة متسائلة مؤدبة.. وسأل:

ـ هل ستزورين الوطن مع زوجك حين يأتي ليرانا في الشهر المقبل سنيورة غانتيوني؟

رفرفت صابرينا عينيها لحظة بارتباك.. ريكاردو لم يقل لها شيئاً عن الذهاب إلى انكلترا، ولم تعرف كيف سترد. لكن فكرة زيارة وطنها مرة أخرى في القريب العاجل أعطت معنوياتها دفعاً مفاجئاً فنظرت عبر الطاولة إلى ريكاردو بعينين واسعتين آملتين. وقالت:

ـ أنا.. لست واثقة سير آرثر.. ريكاردو..

صوت ريكاردو العميق العادي قاطعها:

ـ لا أظن هذا سير آرثر.. فزوجتي مضطرة للبقاء لرعاية ابن أخي الصغير.. إنه تحت وصايتي وليس كبيراً بما يكفي لأن نأخذه معنا في رحلة هي على أي حال رحلة عمل. لن أبقى في انكلترا أكثر من يومين على الأكثر ولا تستأهل الرحلة الإزعاج الذي قد تسببه.

أحست صابرينا وكأنه وجه لها ضربة عنيفة. ولم تستطع فعل شيء سوى التحديق به بخيبة أمل كئيبة لعدة لحظات قبل أن تخفض بصرها بسرعة مرة أخرى، وبدا لها أن ليس هناك حدوداً لتعطش ريكاردو للانتقام.. وقاومت بجنون رغبة مفاجئة في أن تقف وتركض خارج الغرفة بغض النظر عن الانطباع الذي سيتركه هذا في نفس الضيف.

تمتم السير آرثر بأدب وواضح أنه تأثر بعناد مضيفه:

ـ آه.. أجل.. طبعاً.. المرح والعمل لا يختلطان هه غانتيوني؟ والزوجة تكون أسعد حالاً في بيتها! حسناً، أساليب الحياة القديمة كانت تحبذ هذا.. وأنا آسف على تلاشي بعض هذه المثل العليا القديمة.. أستطيع قول هذا لك يا صاحبي العزيز!

أحست صابرينا بعيني الكونتيسة الفضوليتين عليها، لكنها لم

تجرؤ على رفع نظرها إليها فهي تعرف أنها ستضعف دونما قدرة لها على السيطرة.. وكانت تعرف أيضاً أن الكونتيسة سوف تسألها فيما بعد عن كل شيء.. ويجب أن تحاول إيجاد كلمات مناسبة لتشرح لها.

قال ريكاردو:

ـ القِيم القديمة الطراز لم يعد لها معنى هذه الأيام.. حتى للزوجات..

ألمح لمعان عينيه إلى أن هذه الوخزة موجهة إليها.. لم تره من قبل يتعمد أن يكون قاسياً، ووجدت هذا من المستحيل تحمله.

هز السير آرثر رأسه الرمادي الشعر آسفاً:

ـ حسناً.. أنا مسرور جداً لرؤيتي هذه الدائرة العائلية السعيدة في بيتك، عزيزي غانتيوني.. أنا دائماً أتأثر بالجو العائلي السعيد.. وهذا ما يخبرني الكثير عن الرجل.

مثل هذا السوء في التقدير كان كثيراً على قدرة صابرينا.. وضمت يديها معاً للحظة تحاول تهدئة ارتجافها.. يجب أن تبتعد عن هذا الجو البارد المؤدب وتفسح المجال لمشاعرها المكبوتة، أو أنها ستنفجر.

لكن لم تؤاتها الفرصة إلا حين وقفوا عن المائدة. وبدا واضحاً أن ريكاردو وماريو كان لديهما نقاش عملي مع ضيفهما، فانسحبوا إلى المكتبة تاركين النسوة الثلاث وحدهن. وذهبن إلى غرفة الجلوس الكبيرة لكن صابرينا لم تكن في مزاج ملائم لتبادل الحديث، ووجدت غياب ريكاردو فرصة للخلاص أخيراً.

ـ لو عذرتماني سأذهب لأرى إذا كان طونيو نائماً أم لا.

يمكن أن تكون السنيورة فورتسكيو قد انخدعت بهذا العذر،

لكن الكونتيسة بكل تأكيد لم تنخدع.. وأدارت عينين متلهفتين إليها، قلقة لتعاستها:

ـ صابرينا.. كارا.. ماذا هناك؟

لو كانتا وحدهما لما ترددت صابرينا في أن تفضي إليها بهمومها.. لكن وجود السنيورة فورتسكيو البارد الشرير منعها، فهزت رأسها تحس بتهديد الدموع مرة أخرى.. وكانت واثقة من أنها لم تكن في حياتها أبداً، أبداً، في مثل هذا البؤس.

سألت السنيورة فورتسكيو بصوت أجش أجوف:

ـ أليس الأمر واضحاً موبرا؟ أن يضبط الزوج زوجته وهي تقوم بإغواء رجل آخر، لا شك أن هذا مزعج لأكثر النساء.. أنا شخصياً لا أستطيع أن أجد أية شفقة في قلبي على مثل هذه المرأة.

ـ بحق الله دافينا! أنت لا يمكن أن تجدي في قلبك شفقة على طفلة تكاد تموت جوعاً!

دفاع الكونتيسة كان سريعاً وشرساً. وأحست صابرينا بالامتنان لها لدعمها الذي لا يلين.. لكنها كانت لا ترغب في شيء أكثر من فرصة للهرب إلى غرفتها.

لكن موبرا دوغابريلا وقد أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عنها لم تكن مستعدة بعد لأن تنهي المعركة. ولمعت عيناها ببريق ملتهب تحت بريق شعرها الأحمر:

ـ أما بالنسبة إلى عزيزك، پريز يوسو.. البامبينو، هه! فهو الغاوي دافينا فورتسكيو.. وتعرفين هذا تماماً.. له عين غانتيوني، ذلك الولد!

التوت قسمات دافينا الخشنة بشكل كاريكاتوري بسبب المشاعر التي راحت تمزقها، وقالت بصوت لا يكاد يعلو عن

الهمس:

- سيلانزيو! تجرؤين على الكلام هكذا عن ولدي ماريو وأنت لست أفضل من..

قاطعتها الكونتيسة بهدوء:

- باستا داڤينا.. پيرفاڤور! لا تقولي شيئاً قد تتأسفين عليه!

توسلت صابرينا، صوتها يكاد يختنق، وهي تستمع إلى الجدال المرير بين المرأتين:

- أوه.. أرجوكما.. لا تتشاجرا بسببي! أرجوكما!

التفتت عينا السنيورة فورتسكيو السوداوان إليها، حادتان شريرتان، ضيقتان تحترقان بنار كراهية تفهمها صابرينا جيداً.. وقالت بصوت ساخر حاقد أجش:

- ما كان يجب أن يتزوج ريكاردو امرأة أجنبية.. دوموستيكا.. خادمة!

بدأت صابرينا تقول:

- سنيورة فورتسكيو.. أعرف أنك تكرهينني...

قاطعها الصوت الأجش مجدداً وبحقد شديد:

- أنا أحتقرك سنيورة! أنت لست زوجة مناسبة لعائلة غانتيوني، وريكاردو كما أعتقد بدأ أخيراً يرى كم كان أبلهاً. وربما سيطلب الآن إبطال هذا الزواج السخيف، ويبعدك من هنا قبل أن يلحق العار باسم غانتيوني، بإضافة دم إنكليزي إلى السلالة!

كانت ابتسامة الكونتيسة الصغيرة متفهمة أخيراً.. حتى صابرينا رأت ذلك البصيص من الفهم.. فقد عرفت سبب كراهية السنيورة فورتسكيو لها.

- إذن! كنت تكرهين المسكينة ڤيلتشيا، أليس كذلك داڤينا؟

لأنها أدخلت دماً روسياً إلى عائلته العزيزة.. وأنت الآن تتخوفين من أن يلحق ابن ريكاردو العار بك أكثر بأن يكون نصف إنكليزي!

ارتفع ذقن السنيورة النحيل بحدة والتمعت عيناها بمزيد من الكره للمرأة التي تواجهها، بقدر كراهيتها لڤيليتشيا الغائبة، وأعلنت ببرود:

- آل غانتيوني عائلة إيطالية قديمة.. وستعود كما كانت قريباً!

سألتها بنعومة:

- عندما يستقر ماريو بأمان.. سي داڤينا؟ أوه، أرى بوضوح الآن ما تريدينه.. ستيفانو لم يتزوج، لذا طونيو ليس من الأسرة.. وطالما ريكاردو ليس له زوجة، فإن ماريو هو الوريث الوحيد لكل ما بناه ستيفانو وريكاردو هنا!

بدا واضحاً أن تحليل الكونتيسة للوضع كان صحيحاً.. وأن السنيورة كرهت تحليلها بمرارة.. فقد أخذت عيناها السوداوان تنتقلان من صابرينا إلى الكونتيسة بكراهية مريرة جعلت صابرينا ترتجف.

وقالت ببرود شرس:

- لماريو الحق بكل هذا. إنه الوحيد الذي يحمل دم غانتيوني. إنه الغانتيوني الوحيد الحقيقي المتبقي! ليس فيه دم غريب، ولن يتزوج من هي دون مستواه إكراماً لشرف خادمة حمقاء.! لكن لدي ثقة بالشعور بالواجب لدى أي فرد من العائلة، حتى لدى ريكاردو.. يمكن أن يكون قد تزوج من «دموستيكا» لكنه لن يلطخ اسمه بجعلها تحمل ابنه.. وأقسم على هذا!

وضعت صابرينا يديها على أذنيها، وجهها متجعد بدموع تهدّد بالانفجار:

ـ أوه.. أرجوك.. أرجوك! بإمكان ماريو أن يأخذ كل شيء! لست أهتم! أنت محقة سنيورة، لن يكون هناك ابن لي ولريكاردو.. ليس بعد الآن.. فقد تمكن ماريو من فعل هذا!

ضمت يديها أمامها وجسدها ينتفض بالبكاء:

ـ سأبتعد عنكم جميعاً.. قدر استطاعتي. أبتعد.. عنك، عن ماريو.. عن.. عن ريكاردو! لا أريد أن أرى أياً منكم مرة أخرى.. أبداً.. أبداً!

لم تتوقف لترى يد الكونتيسة الممتدة نحوها ولا التشفي في عيني السنيورة.. وركضت إلى غرفتها تسعى إلى الأمان داخلها.. أحست بأنها مظلومة، مقهورة، مذلولة، مضطرة لأن تواجه الواقع، وهو أن ما قالته السنيورة صحيح على الأرجح.

ريكاردو لن يعاملها أبداً كزوجة ولا حتى لأجل أن تحمل خليفة له يحمل اسمه القديم. بإمكانه أن يفعل هذا بتبني طونيو كما قالت الكونتيسة.. طونيو على الأقل إيطالي.. حتى السنيورة فورتسكيو لا تستطيع إنكار هذا.

كان طبيعياً أن تذهب إلى غرفة طونيو في الطابق الأعلى، ووجدته نائماً بأمان.. وهي تمسح شعره الأسود عن جبينه أخذت تبكي وهي تحاول تقرير مستقبلها.

ستشتاق لطونيو وستشتاق لحياتها في الڤيلا.. مهما كانت غير مستقرة.. لكن أكثر من أي شيء آخر ستشتاق لريكاردو.. لقد عرفت ومنذ اللحظات الأولى للقائهما أنه رجل لن تنساه أبداً.. لكنها لم تتوقع إطلاقاً أن تتورط معه.

ها هي الآن لا تستطيع تصور الحياة دونه.. مع ذلك تعرف أنها لو بقيت هنا فستعيش في جنة بلهاء زائفة، ولن تراه دافئاً محباً مثلما كان في تلك الدقائق القصيرة هذه الليلة.. الآن وبعد أن

اقتنع بأنها تفضل ماريو عليه، لا شيء سيغيّر رأيه.. هذه الناحية من شخصيته كانت الشيء الأول الذي تعرفت إليه فيه.

عادت إلى غرفتها دون أن تضيء النور، تقدمت إلى النافذة تضع جبهتها على زجاجها البارد.. من المرجح جداً أن يطلب إبطال زواجهما القصير ولا موانع قانونية ستواجهه في هذا.

ضغطت وجهها على الزجاج البارد اللامع وبكت لشيء لم تحصل عليه أصلاً.. بينما في الخارج كان القمر المشرق يلمع فوق الخليج، وفي الحديقة كانت الأشجار المظللة تقف قائمة مترنحة أمام الريح الخفيفة القادمة من البحر.

بيلابايا.. الخليج الجميل.. المكان الذي ظنته الفردوس على الأرض منذ بضعة أشهر قصيرة.. وكانت تظن أنها ستقيم فيه لأسبوعين فقط خلال إجازتها. لولا أنها فقط لم تتكلم مع غريب جميل الطلعة ومع صبي صغير.

* * *

٩ ـ لن تعود لأنها تحبه

استغرق الأمر بضع دقائق صعبة حتى أقنعت صابرينا الكونتيسة بالاتصال بسيارة أجرة لإيصالها إلى المطار. وتوسلت إليها كي لا تخبر ريكاردو بسفرها إلا بعد أن تنفد الذرائع.. بهذه الطريقة كانت متأكدة أنها ستكون في طريقها إلى انكلترا قبل أن يعرف. ومن الطبيعي بعد معاملته لها هذه الليلة أن لا يهتم كثيراً بمكان وجودها، لكن لا شك أنه سيشعر بالاستخفاف لفكرة هجرها له، ولن يلحق بها.

لم تتوسل الكونتيسة لها كما توقعت.. بل سألتها بهدوء عن سبب تكدرها قبل العشاء وشرحت لها الأمر بأفضل طريقة ممكنة، كيف مر بها بعد ظهر ذلك اليوم المصيري.. وهزت الكونتيسة رأسها لكنها لم تقل الكثير، وأحست صابرينا أنها شهدت من قبل مثل هذا الفراق وعرفت أنه محتوم، عاجلاً أم آجلاً.

قبّلتها بلطف على الخدين وأعطت سائق التاكسي تعليمات بأخذها إلى المطار، ثم عادت إلى القيلا دون أن تنظر خلفها، تاركة صابرينا تحس بالهجران.

الرحلة بالتاكسي عبر الطريق الذي ينيره شعاع القمر إلى نابولي، ذكرتها برحلتها مع ماريو، وأحست بطعم الدموع المالحة مجدداً.. بساتين الحمضيات العطرة بقباب القش التي تحميها من

عوامل الطبيعة.. لمعان البحر القاتم في الأسفل تحت السطح المتدرج بدا لها مألوفاً بشكل يؤلم القلب، وعرفت أنها لن تستطيع إيقاف نفسها عن البكاء.

قد تصل المطار وهي تبدو محطمة، وكما هي تماماً، زوجة هاربة.. وهي تقترب من المطار، فتشت في حقيبة يدها لتخفي مظهرها الشعث ببعض الماكياج، مستخدمة النور القاتم داخل التاكسي.

صورتها المنعكسة في مرآة الحقيبة الصغيرة أخافتها.. بدت عيناها كبيرتين ومحمرتين.. وجهها شاحب كالأموات لا أثر للون فيه أو لأحمر الشفاه الذي وضعته على عجل قبل خروجها.. كان من الصعب أن تتصور أن هذه المخلوقة المشابهة للأشباح التي تنظر إليها عبر المرآة، هي الفتاة نفسها التي كانت منذ ساعات تكاد تحترق بهجة ورغبة إلى زوجها.

كانت قد تركت الفستان الأخضر على السرير كذكرى لسعادتها القصيرة جداً، والتي لا مجال لأن تحملها معها.. كان توضيب حقيبتها سريعاً ولم تستطع أن تطوي الفستان فيها.

ها هي تواجه الواقع الآن، وهو ما تجنبت حتى الآن أن تعترف به.. حتى لنفسها.. إنها تحب ريكاردو بطريقة لم تحلم يوماً أنها قد تكون ممكنة.. وليست حتماً زوجة زائفة فقط.. لقد أحبته حتى قبل أن توافق على الزواج منه.. فمن المؤكد أن ما من فتاة عصرية نيّرة الفكر تقبل بزواج على أساس واهٍ لولا أنها كانت عمياء بمشاعرها.

كان يكفيها أن تحمي سمعتها بأن تترك القيلا على الفور وتعود إلى انكلترا.. هذا ما استطاعت أن تراه الآن.. لكنها أرادت أن تبقى، وتمسكت بأية فرصة متوفرة مهما كانت النتائج.. ولربما

كان ريكاردو ينوي أصلاً أن يتخلص منها في الوقت الذي يناسبه.

نظرت إلى نفسها نظرة أخيرة وأفلتت منها تنهيدة مدمرة كبيرة وهي تقفل حقيبتها.. ونظرت إلى المطار المزدحم الصاخب.. لا شك أن السائق كان متعجباً لما هي فيه، وصوت تنهيدتها دفعه إلى إدارة رأسه لينظر إليها من فوق كتفه:

ـ سنيورة؟

هزت رأسها:

ـ لا شيء.. أنا آسفة.

ـ سي سنيورة.

عرفت أنه أصبح أكثر تعجباً بعد أن شاهد وجهها الملطخ بالدموع.. وتساءلت عما إذا كان لديها الشجاعة الكافية لتختلط مع الآخرين في قاعة المغادرة المكتظة. لكنها على الأقل بين الجموع ستكون أقل ظهوراً.

تقبل الرجل المكافأة السخية منها ولامس قبعته تحية لها بينما عيناه السوداوان تتفرسان بها خلسة وهو يُخرج حقيبتيها من الصندوق.. كان يعرف من هي، فقد سمعت اسمها من بين التعليمات بالإيطالية التي أعطتها الكونتيسة له.. وتشك أن يكون الآن يفكر بما هو واضح تماماً.

ـ شكراً لك، أستطيع تدبير نفسي الآن.

نظر إلى حقيبتيها، وهما نفسيهما اللتين جاءت بهما من انكلترا.. وقال:

ـ ديو سكاتول، سنيورة؟ كون پيرميسو..

ـ لا.. لا.. أستطيع تدبير أمري! شكراً لك.

كانت متلهفة لأن تمضي في طريقها.. أن تختفي بين الجموع التي لا وجوه لها، هنا تشعر أنها ضعيفة معرضة للخطر..

والتقطت حقيبتيها، بينما هز السائق كتفيه استسلاماً وراقبها تختفي بين الناس داخل المبنى المشرق بالأنوار.

لا شك أن وجهها الشاحب وعينيها الحمراوين هما السبب الذي دعا موظف التذاكر لينظر إليها باستغراب. وتمنت لو استطاعت أن تخفي بشكل أفضل كل آثار إحباطها. لن تعبأ كيف ستصل إلى انكلترا طالما تركب الطائرة المغادرة فوراً.. لكن الموظف هز رأسه متأسفاً:

ـ مي سبياس سنيورة غانتيوني.. لا شيء قبل.. ساعتين.

نظرت إليه برعب:

ـ ساعتين؟

فكرت بذعر أن ريكاردو سيعرف برحيلها قبل ساعتين بكثير من الآن.

ـ مي سبياس سنيورة!

ـ لكن، أليس هناك طائرة إلى.. إلى.. أوه.. أي مكان؟

كانت تحس أن الدموع الملحاحة على وشك أن تهطل مرة أخرى، وخشيت أن تظهر حمقاء في مكان عام مثل مطار نابولي. وكان الموظف ينظر إليها وكأنه كذلك يخاف مما سيضطر إلى التعامل معه.

ـ سنيورة.. يبدو أنك محبطة جداً..

استخدم كلتا يديه ليعبرّ عما يريد قوله، وأكمل:

ـ.. سأستدعي سيدة شابة لتساعدك.. ربما تود السنيورة أن تستريح قليلاً في مكان خال.. سي؟

إنه لطيف لكنه متلهف كذلك كي ينقلها إلى مسؤولية غيره.. وهزت رأسها متعبة:

ـ أنا.. في الواقع لست على ما يرام، سنيور.. لو

أستطيع..

ـ سي.. سي.. سيرتو سنيورة!

أدخلت إلى غرفة صغيرة هادئة فيها مقعدان بذراعين وطاولة صغيرة وراءها كرسي، أحست أنها لا يمكن أن تتوفر لأي مسافر آخر ونظرت متسائلة إلى مرشدتها حين فتحت لها الباب. وسألت:

ـ لا بأس في أن أكون هنا؟

ابتسمت الفتاة متفهمة:

ـ أوه.. سي.. سيرتو.. سنيورة غانتيوني!

استخدام اسمها الكامل أعطاها دليلاً على سبب تمييزها، وترددت قليلاً قبل أن تهز رأسها شاكرة.. من الأفضل لها أن تستفيد من كونها زوجة ريكاردو غانتيوني.. قالت:

ـ شكراً لك.

ابتسمت الفتاة:

ـ بريغو.. نون ني بارلي، سنيورة.

مع إحناء رأسها تركتها الفتاة، وأصبحت صابرينا وحيدة في الغرفة الصغيرة الهادئة.. ساعتها فقط أدركت أنها لم تحجز لنفسها مقعداً على الطائرة المغادرة بعد ساعتين. المقعد بذراعين الذي جلست عليه كان مريحاً، وأحست فجأة بتعب شديد.. فأسندت رأسها إلى الخلف لترتاح لحظات قبل أن تخرج لتحجز مقعدها.. هذه المشاعر المضطربة التي مرت بها، يمكن أن تكون مرهقة بشكل غير معقول.. وتحتاج إلى الوقت لتجمع شتات نفسها.

لم تكن تنوي أن تنام لكنها أدركت بعد أن فتحت عينيها أنها فعلت هذا.. وبدت لها الغرفة الصغيرة خانقة، فمدت ذراعيها

فوق رأسها لتستعيد دورتها الدموية طبيعتها.. نصف ساعة من الساعتين مرت وها هي تحس بإحباط أقل.

نظرة إلى المرآة في حقيبة يدها أكدت لها أنها تبدو أفضل حالاً الآن. صحيح أن عينيها لا زالتا حمراوين من البكاء لكنهما أقل وضوحاً، واستعاد خداها بعض اللون. لكن كان لا يزال هناك مظهر حزين قاتم في عينيها الخضراوين وتساءلت كيف ستواجه الحياة مجدداً كفتاة عاملة.

ستعود بالطبع إلى اسمها الأصلي وبهذا توفر الإحراج على ريكاردو حين يأتي إلى انكلترا.. لكنها نظرت إلى الخاتم الذهبي الثقيل في اصبعها بندم.. ستعيده إليه حين تصل.

في استعادة للذكرى كان يمكن أن تعود إلى البكاء مجدداً.. لكنها كبحت نفسها بحدة ووقفت مصممة على أن تكون عملية. جعلها قرع خفيف على الباب تستدير بسرعة وكادت تطلق تنهيدة ارتياح حين أطلت المضيفة السمراء مبتسمة:

ـ سنيورة..

ثم تراجعت بسرعة حين أزاحها أحد إلى الوراء، ومر بها ليدخل الغرفة بخطوات واثقة وكأنه يملكها، يجرف الجميع أمامه كالعادة.. وقال للمضيفة:

ـ ڤاري ڤيا، بيرفاڤور سنيوريتا!

بعد نظرة مترددة إلى صابرينا هزت الفتاة رأسها وانسحبت قائلة:

ـ سي سنيور!

بعد إقفال الباب خلف الفتاة، وقف ريكاردو ينظر إليها للحظات طويلة.. وأبقت صابرينا ظهرها له.. هذه الدموع سوف تخونها مجدداً.. ثم سألها:

ـ هل لي أن أسأل لماذا رأيت من المناسب ترك عشاء تعرفين جيداً أنه مهم لي؟

لم ترد.

لم يكن يهمه كما يبدو أن تكون تعيسة.. أتعس من أن تتمكن من العيش معه في منزل واحد.. إنه مهتم فقط بمصالحه الخاصة.. وانتظرها بضع لحظات. حين لم ترد خاطب ثانية ظهرها العدائي.. وقال بهدوء:

ـ أعتقد أنه يحق لي برد.

ـ أنا.. آسفة.

صوته كان أجشاً لا يزيد عن الهمس، وسمعته يقترب منها ربما ليتمكن من سماع ما تقول:

ـ أتدركين أن هروبك هكذا على الأرجح سيكلفني الكثير من المال، وعقد عمل مهم في انكلترا؟

مال وعمل.. الشيئان الوحيدان اللذان يهتم بهما دائماً.. حسب قول ماريو.. ويبدو أنه محق.. فجأة تصاعد غضبها إلى الذروة وتشابكت عواطفها.. كانت يداها مشدودتين بقوة معاً وهي تستدير لتواجهه. عيناها الخضراوان مشتعلتان، وخداها محمرّان.

سألت بصوت يرتجف غضباً ودموعاً:

ـ وهل هذا مهم لك؟ أتريد شراء انكلترا إضافة إلى معظم إيطاليا؟ ألا يهمك شيء آخر؟

لم يقل شيئاً لكن عينيه الزرقاوين المثلجتين كانتا بعيدتين عن البرود كما توقعت، والفم المستقيم الصارم لم يكن في خط غاضب كما كانت تراه دائماً.. ثم قال بهدوء:

ـ ما كنت لأكون هنا لو كان اتهامك صحيحاً.

نظرت صابرينا إليه بارتباك.. فغرت فمها واتسعت عيناها،

وهي تحاول أن تقرر ماذا يعني.

ـ أنا.. لم أفهم.

كانت السترة البيضاء الناصعة كما لاحظت لأول مرة مفتوحة، وشعره مشعث بشكل غير عادي وهو يتدلى على جبينه.

ـ لقد أكدت لي مويرا.. أن ماريو.. لم يدخل غرفتك أبداً من قبل.

قالت بسرعة وبصوت منخفض هادىء:

ـ لا.. لا.. لم يفعل أبداً.

لم تجرؤ على التفكير بأنه سوف يعترف بخطئه.

ـ يبدو أنني مدين لك باعتذار.

لوحت يديها تصرف النظر عن أهمية الاعتذار.. لكنها كانت تعرف كم كلفه ذلك الاعتذار.

ـ أوه.. لا يهم.. أنا آسفة على الصفقة التجارية، لكن ما كان يجب أن تأتي.. ليس لأجلي.. والصفقة مهمة لك.

ـ ألا تظنين أن هجر زوجتي لي أمر مهم؟

أحست بقلبها يقفز فجأة.. حتى التلميح الصغير بأنه يهتم بها كان كافياً لتسارع نبضاتها، وقالت لنفسها إنها بلهاء تماماً.

ـ لم أكن أقصد أن تلحق بي.. كنت أتمنى أن أكون قد سافرت حين تعرف.

ـ كانت مويرا تعرف أن لا رحلات إلى انكلترا لأكثر من ساعتين، وتأكدت من هذا قبل أن تتصل بالتاكسي.

ارتفعت زاوية فمه لجهة واحدة بشبح ابتسامة.

ـ اسم غانتيوني له وزنه في هذه الأنحاء.. لقد قدت السيارة بأسرع ما يمكنني.. وأعتقد أن السير آرثر محتار لتصرفي.

هزت صابرينا رأسها متسعة العينين قلقة:

- أنت.. تركته..؟ لتأتي وتجدني؟

هز رأسه:

- طبعاً.. إنها مسألة كرامة حين تهجر الزوجة الرجل.

- فهمت.. أنا.. أنا آسفة.. لكنني كنت متكدرة.

- بسبب الشجار مع عمتي؟

- أخشى أن تكون السنيورة فورتسكيو لا تحبني.. إنها تزدريني لأنني.. دوموستيكا.. ولست بحاجة لمن يترجم لي هذه الكلمة! وأظن أن كرامتي جرحت.

ابتسمت لكنها فشلت في اجتذاب الرد من الوجه المتجهم.

- أستطيع فهم هذا.. فالكرامة ليست حكراً على الأثرياء أو الأرستقراطيين.. ومن حقك الانتفاض لكرامتك مثل أي شخص آخر.

لم تتوقع سماع مثل هذه الموافقة منه وضحكت بقلق:

- أخشى أن لا تشاركك عمتك وجهة نظرك.. وبما أنني متزوجة منك.. فهي تخشى..

صمتت لا تريد أن تعيد خطاب السنيورة المطول لها.

كان الإحساس المثير الذي طالما حرّكه فيها يتصاعد عبر جسدها كله.. وتمنت إما أن يذهب ويتركها أو أن يقوم بخطوة يرضي فيها شوقها إليه.. سيكون من المستحيل عليها أن تنسى ريكاردو مهما طال بعدها عنه.

التقطت العينان الزرقاوان عينيها لحظة قصيرة قبل أن تخفضهما على عجل.. وقال بهدوء:

- لو أن عمتي وماريو ابتعدا.. فهل تعودين صابرينا؟

لم ترد ولم تستطع لعدة لحظات وقلبها يضرب بشدة أن تتخلص من إحساس خانق.. ثم هزت رأسها ببطء وتردد ظاهر..

- أنا.. لا أستطيع.. ريكاردو.

على الفور عاد البرود المثلج إلى عينيه الزرقاوين، واحمر خداه المرتفعان.. وسأل:

- لأنني قلت لك إنني سأبعد ماريو؟

رفعت نظرها إليه بسرعة متلهفة لإنكار اتهامه:

- أوه.. لا! كيف يمكنك أن تستمر في الظن أن ماريو يعني لي شيئاً؟

- إذن لماذا لا تريدين العودة؟

وقفت لعدة لحظات ورأسها منحنٍ.. كيف ستقول لهذا الرجل إنها لا تستطيع العودة لتعيش معه لأنها تحبه كثيراً؟ هذا لا شك أكثر المواقف سخرية تواجهه امرأة في حياتها.

- صابرينا؟

تلفظ باسمها بلطف ونعومة. رقته، لمسة اللهفة التي لاحظتها في صوته كانت سبب انهيارها، تدفقت دموع كبيرة على خديها فمسحتها بنفاد صبر، بيد مشدودة:

- لا أستطيع العودة ريكاردو.. لأن.. لأنني أحبك.

ها قد قالتها أخيراً.. وبإمكانه الآن أن يدرك حقيقة مشاعرها.. ولماذا لا تستطيع الاستمرار كما كانت.. ولا بد أنه سيفهم الآن، لكنه لم يتحرك أو يقول شيئاً لدقيقة كاملة.

ثم قال:

- إذن تعالي إلى البيت، كاريسيما.

نظرت إليه متسعة العينين:

- ريكاردو!

لم تجرؤ على التصديق أنها حقاً ترى نظرة الدفء المثيرة في عينيه.. وتحرك نحوها يمد ذراعيه إليها، يجذبها إليه وكأنه يريد

أن يسحقها إلى أن تصبح جزءاً لا يتجزأ منه، وأحست بدفء جسده، وضربات قلبه الصاخبة عبر قماش قميصه الأبيض.. ووضعت وجهها على قلبه..

حتى في تلك اللحظات التي لا تُنسى، لم يعانقها كما يعانقها الآن.. وأحست كأن كل ذرة من جسدها تستجيب إليه..

ـ صابرينا.. بيلا ميّا! كاريسيما! ستعودين معي ميا بيلا.. ألن تفعلي؟

نظرت إليه بعينين لامعتين خضراوين، شعرها الأسمر متراجع إلى الوراء وهي تبتسم له.. وقالت:

ـ تعرف أنني سأعود.. لست أدري حقاً ما إذا كنت سأتمكن من السفر حين تأتي اللحظة.. أحبك، حبيبي ريكاردو.. وأظنني سأحبك دوماً.

نظر إليها بشيء من الشك:

ـ دوماً؟ ألم تكوني هكذا أبداً.. مع ماريو؟

ردت بثبات:

ـ أبداً! وأعرف أنه لم يكن جاداً معي كذلك. لكنه كان رفيقاً جيداً لا سيما وأن زوجي كان مصمماً على تجاهلي.

ضحكت لثقتها المتجددة بنفسها:

ـ قال إنك لا تستحقني.

اعترف بتواضع لم يكن من عادته:

ـ ربما لا أستحقك.. لكنني أحببتك وما كنت سأسمح لماريو أن يأخذك مني.. لو أنك.. أحببته بما يكفي..

صمت وأدهش تردده صابرينا كثيراً فرفعت نظرها إليه بسرعة تسأل متجهمة:

ـ كارو..؟

خرجت كلمة التحبب الإيطالية منها بسهولة، فشدها إليه مجدداً حتى أنها لم تعد تستطيع التحرك حتى ولو أرادت.. وأكمل بهدوء:

ـ لو أنك أحببته بما يكفي، كاريسيما، لكنت على الأرجح تركتك ترحلين إذا كان هذا سيسعدك.. ولو توسلت إليّ.

ـ أوه.. لا يا حبي! ما كان هناك مجال لهذا أبداً.. وماريو ما كان ليتزوجني على أي حال.. فالسنيورة فورتسكيو لديها خطط له لإدخال دم إيطالي صرف للعائلة، تعتقد أن عليها أن تستعيده.

صمت للحظات ثم نظر إليها متجهماً:

ـ وهل قالت كل هذا لك كاريسيما؟

هزت رأسها:

ـ كانت الكونتيسة موجودة كذلك.

ـ وأنت هربت لأنك تحبينني، وظننت..

مررت أصبعها على خطوط فمه الصارم.

ـ ظننت أن عمتك قد تكون محقة، وأنك تزوجتني لأن سمعتينا معاً كانت على المحك.. وأنك لن تسمح لي أبداً...

نظر إليها بعطف، تعابير عينيه سلبتها كل تظاهر لها بالتواضع.

ـ سي، كارا ميا؟ أكملي.

ـ كانت واثقة تماماً أنك لن تسمح لي بأن أحمل بابن لك كي لا ألطخ اسم غانتيوني بدم إنكليزي.

ـ كاغنا!

الكلمة أجفلتها، فنظرت إليه بفضول متسعة العينين.. لدهشتها ضحك.. وهذه المرة الثانية التي تسمع فيها ضحكته.

ـ أنا لا أروق كثيراً لعمتي داڤينا، كاريسيما ميّا!

أحنى رأسه يعانقها مجدداً، ويهمس:

ـ سنظهر لعمتي ما إذا كنت ستحملين بأبنائي أم لا.. سنعود إلى المنزل الآن، أماتي ميّا، ولن يعود لماريو أي أمل بأن يكون الوريث الوحيد لعائلة غانتيوني.. هه؟

سألته صابرينا، عيناها المشرقتان تظهران أنها تعرف الرد جيداً.

ـ حتى ولو لم أكن إيطالية؟

رد بثبات:

ـ سيلانزيو!

وقنعت صابرينا بهذا الرد.

* * *

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة